الفصل الثالث

المرحلة الثالثة من حروب الاسترداد في الطور الثاني

(مرحلة دمشق)

قبل أن يتحرك صلاح الدين باتجاه بلاد الشام غادر الصالح اسماعيل بن نور الدين دمشق وتوجه إلى حلب ليعتصم بها ، ولهذا عندما وصل صلاح الدين إلى دمشق دخلها دون أية مقاومة ، ولم يكتف صلاح الدين بها ، كما أن المتحكمين بدولة الصالح اسماعيل لم يسلموا لصلاح الدين وواجهوه بالعدوان ، ولذلك ، ولمطامح صلاح الدين بملك واسع غادر دمشق وقصد الشمال ، وخاض صلاح الدين العديد من المعارك ضد سلطات حلب وبلدان الجزيرة بما في ذلك الموصل والعديد من مدن الجزيرة ، وبعد سنوات حروب طوال تحقق لصلاح الدين اعادة توحيد بلاد الشام شمالا وجنوبا مع مصر تحت حكمه ،إنما يلاحظ أنه حدث مع صلاح الدين ما حدث مع الفاطميين وغيرهم قبله ، فقد تضاءل نفوذه على شمال بلاد الشام ، وكان العامل الفعال الآن ليس قوة شمال بلاد الشام كما كان فيما سلف ، ولكن قوة الاقطاع العسكري وتكتلاته.

ومهما قيل عن حروب صلاح الدين في بلاد الشام عقب وفاة نور الدين ، فإن هذه الحروب قد حسمت مادة الفوضى في البلاد وحالت في الوقت نفسه بين الفرنجة وبين أي توسع في الشام أو سواها ، أو الاستفادة بأي شكل أو درجة من الأوضاع التي كانت سائدة قبل النصر النهائي له ، وعندما حقق صلاح الدين سيادته الكاملة على الشام صار سيدا لدولة عظمى تمتد من ليبيا إلى جنوب الموصل ، وتشمل مع بلاد الشام :الجزيرة ومصر والحجاز واليمن وطبعا ليبيا أو الشريط الساحلي منها . ·

ولقد ملكت هذه الدولة ما يكفي من طاقات بشرية واقتصادية للاعداد للقيام بعمل حاسم ضد الصليبيين ، وأيقن صلاح الدين أنه قد حان الوقت لمنازلة جميع القوى الصليبية في المشرق في أرض معترك واحدة ، وفي ظروف مختارة بشكل يناسب ويمكن من النصر ، وخلال زمن موافق ، يتيح احراز نصر ساحق ضد القوات المعادية .

ويلاحظ أن هذه الفترة قد شهدت يقظة كبيرة في جميع الميادين الحضارية ، تجلت بشكل واضح في مجالات العلوم العسكرية وفنون القتال ، فقد تم تحسين عدد كبير من الأسلحة ، خاصة النارية منها - النفط - النار الاغريقية - ومن حيث رفع مستوى التدريب والمقدرة القتالية الهجومية لدى قوات صلاح الدين ، كما أن دولة صلاح الدين ملكت اقتصادا عسكريا متينا ، فرغم جميع المآخذ على الاقطاع العسكري إلا أن اعتماده كان من معانيه تسخير الموارد الزراعية لصالح العمل العسكري ، هذا وملك صلاح الدين نواة اسطول أدت سفنه بعض الخدمات ، إنما على العموم عانت دولة صلاح الدين من النقص في الأخشاب والفولاذ ، ونتيجة لذلك كثيرا ما اضطرت إلى الاعتماد على تجارة التهريب - السوق السوداء - التي كانت تمارسها بعض جمهوريات ايطاليا التجارية - جنوا - البندقية - بيزا.

وكان الصليبيون يمتلكون أنذاك الشريط الساحلي لبلاد الشام ابتداء من أنطاكية ، وكان عرض هذا الشريط لا يتجاوز أحيانا الثمانين كيلو مترا ، وكانت أراضيهم موزعة بين دول ثلاث مراكزها :انطاكية ، والقدس ، وطرابلس ، وكانت هذه الأراضي محاطة من ثلاث جهات بالأراضي العربية ، حيث وجدت مدن بلاد الشام الكبرى مثل : دمشق ، حمص ، حماه ، بعلبك ، حلب ، وكانت هذه المدن واقعة على مقربة من «الحدود الصليبية» كما كان معظم سكان المناطق الواقعة في حوزة الصليبيين من العرب السوريين ، علاقتهم بالصليبيين علاقة الغرباء ، دون أية روابط اجتماعية أو سواها.

وقامت خطط صلاح الدين في رصد الصليبيين رصدا جماعيا وافراديا ، فهو قد استقر في دمشق ، وأقام في كل من حمص وحماه نواة مملكة اقطاعية ايوبية ، وكان على هاتين المملكتين رصد امارة طرابلس الصليبية ، كما جعل من حلب مقرا لملكة أيوبية ثالثة مهمتها رصد امارة انطاكية الصليبية مع الامبراطورية البيزنطية ، وكانت مهمة صلاح الدين ذات شقين على الأقل ، رصد مملكة القدس والأشراف العام على دولته التي بلغت هذا الحجم الامبراطوري.

وكانت المساعدات البشرية والحربية والاقتصادية ترد إلى الصليبيين من اوربا بلا انقطاع عن طريق الأراضي البيزنطية وعن طريق البحر ، فقد كانت الأساطيل الأوربية تملك السيادة على شواطىء البحر المتوسط خاصة الأوربية والشرقية ، وكانت امكانات صلاح الدين البحرية أضعف من أن تخوض معركة مواجهة مع هذه الأساطيل .

لكن اذا كان اسطول صلاح الدين أضعف من أساطيل أوربا فقد ملك عرب المغرب أساطيل جبارة ، وكان بامكانها لو تعاونت مع اسطول صلاح الدين تقديم خدمات كبيرة جدا ، فلقد كان هناك اسطول امبراطورية الموحدين ، وكان الموحدون يخوضون غمار حرب ضروس ضد الصليبيين في جبهة الأندلس.

وبفطرة الشعور بوحدة المصير ، ووحدة المعركة ، وجد أنذاك مواطنون عرب من مدن المغرب والمشرق كان بعضهم يغزو عاما في فلسطين واخر في الأندلس ، من هذا المنطلق راسل صلاح الدين يعقوب المنصور الموحدي بسفارة سامية المستوى ، واستقبل المنصور الموحدي السفارة في مراكش ببعض من الحفاوة ، لكنه لم يلب المطلب الذي جاءت من أجله السفارة وذلك لأسباب عقائدية ، وسياسية تتعلق بالتوسع الأيوبي في ليبيا وبالعلاقات الموحدية العباسية ، ذلك أن الموحدينَ اعتبروا انفسهم خلفاء لا ملوك عاديين ، لكن صلاح الدين لم يعترف بذلك بل اعترف بخلافة بني العباس فقط.

واعتمد الصليبيون في كثير من الحالات على حماية الامبراطورية البيزنطية ومساعدتها لهم ، وكانت هذه الامبراطورية القوية تسعى دائما للتنسيق مع الصليبيين والاستفادة من نشاطهم ، يضاف الى هذا أن الصليبيين ركنوا في كثير من الأحيان على المساعدات التي كانت تأتيهم من ارمينية ، وأحيانا من بعض موارنة جبل لبنان .

ومفيد هنا ان نذكر أن الصليبيين حققوا نجاحاتهم المبكرة بسبب تمزق العرب ، وانصراف حكامهم الى النزاعات الداخلية ،لكن في أيام صلاح الدين انعكست الآية وانقلب السحر على الساحر ، فلقد توحد القطاع الأكبر من العرب تحت راية صلاح الدين ، واخذت الفرقة تحل بين صفوف الصليبيين اجتماعيا وحضاريا واقتصاديا ، كما اخذ التمزق يبدد قوى قادتهم سياسيا ، وكانت الروح المتوقدة التي ظهرت بين صفوف طلائع الصليبيين قد خمدت ، كما أن الفوارق بدت جلية بين ابناء الصليبيين الذين نشأوا في الشام ، وبين هؤلاء الذين قدموا حديثا من أوربة ، وظهر بين صفوف الصليبيين عامة منظمات عسكرية دينية اصطدمت مصالحها في كثير من الأحيان وتعارضت سياستها ، كما جلب الصليبيون معهم الى الشام نظم الاقطاع التي كانت سائدة في أوربا ، لهذا تضاءلت سلطات ملوك الدول الصليبية على الفرسان الاقطاعيين الذين تمركزوا في بعض قلاع الشام ، ولم تعرف جيوش الفرنجة أنظمة الطاعة والضبط والربط ، يضاف الى هذا أن بعضا من الاقطاعيين تطلع نحو عرش احدى الدول الثلاث وحكمه حكما مباشرا او على شكل وصاية .

وقام صلاح الدين في كثير من المناسبات ، وببراعة متناهية بتوسيع شقة الخلافات بين قادة الصليبيين ، كما كثف النشاط العسكري ضد القلاع ، مستهدفا تدمير الفرنجة اقتصاديا ، ليكون ذلك مقدمة للتدمير العسكري والسياسي ، وتركزت في البداية جهوده على حماية منطقة دمشق ، وذلك بتحرير أراضي الجولان مع منطقة جبل عامل وبعلبك ثم الأشراف على الطريق البري الواصل بين مصر

والشام ، وكان للصليبيين على هذا الطريق حصـن الكرك ، فجهد صلاح الدين في سبيل الاستيلاء عليه (١).

لقد شهد وليم الصـوري جميع هـذه الأحـوال المتغيرة ، وتملكه رعب شديد دفعه الى التنبؤ بأن مملكة القدس أيلة الى الدمار ، وقـد قام هذا المؤرخ الكبير بوصف تحليلي للمـوقف مفيد الاطـلاع عليه برمته :«ينبغي علي هنا أن أنحرف عن مسار روايتي ، ليس لأتجول هنا وهناك دونما هدف ، بل لتقديم شيء ثمين ، فالسؤال الذي أسأله دائما بحق هو : لماذا كان أجدادنا ، يتمكنون بشجاعة من التصـدي في المعركة ، وهم أقل عددا لقـوات عدوة أكبـر منهـم بـكثير ، وغالبا - بنعمة الرب - ما كانت قوة صغيرة مـن قـواتنا تحـطم حشودا كبيرة للعدو ، حتى صار نتيجة لهذا اسم الصليبيين يبعـث الرعب في قلوب الأمم التي لا تعرف الرب ، وهكذا تجلت عظمة الرب في أعمال أجدادنا ، وعلى العكس من هذا نجد رجال عصرنا غالبا ما تلحق بهم الهزيمة من قبل قوات أصغر منهم لا بـل عندمـا يكونون بأعداد أكبر ويحاولون تنفيذ بعض المهام ضـد الأعداد الأقـل قـوة منهم ، فإن جهودهم تتبدد وهم غالبا ما يجبرون على الهزيمة.

إن السبب الأول الذي يبرز أمامنا ، بعد دراستنا لهـذه الحـالة بشكل دقيق ، بمعونة الرب خالق كل شيء : هـو أن أجـدادنا كانوا أتقياء يخشـون الرب لكن نمـا الآن في مـكانهم جيل شرير انغمس بالاثم وسار في طريق الموبقات دونما رعاية أو تمييز ، إنهم مثل ، او بالحري أكثر ، ممن قال عنهم الرب : « ابتعـدوا عنا ، لأننا لا نريد أن نعرف طريقهم » ، إن هؤلاء قد حرمهم الرب بسبب ذنوبهم مـن رعايته لأنهم أثاروا غضبه ، إنهم رجال العصر الحـالي ، خـاصة اولئك الذين يقطنون في الشرق ، فإذا ما أراد المرء أن يصـف بـدقة اخلاقهم ، أو بالحري أثامهم المرعبـة ، سـيعجز أمـام ركام المواد المتوفرة أمامه ، وبكلمة موجزة هو سيبدو وكأنه يكتب عن الموبقـات وليس يصنف كتابا في التاريخ.

وسبب ثان يبرز أمامنا هو أن رجال السلف المبجلين الذين جاءوا

الى أراضي المشرق كانت تدفعهم غيرتهم الدينية وأرواحهم المتوقدة بالحماس لمعتقدهم ، وكانوا معتادين على الأنظمة العسكرية ، مدربين في المعارك ويحسنون استخدام الأسلحة ، وفي المقابل كانت شعوب الشرق على عكس ذلك ، حيث أنها عاشت طويلا وادعة مع السلم ، وابتعدت عن الحرب وكانت معتادة على فنون القتال ، ولا تعرف أحكام المعركة وتنعم بالهدوء والراحة ، ولهذا لم يكن مستغربا أن تتمكن جماعة قليلة من الرجال بسهولة من هزيمة جماعات اكبر منها ، ومن ثم تفخر وتعتز برايات النصر ، لان في مثل هذه المسائل - كما يعرف خبراء الحرب أحسن مني - الربح في السلاح مقرون بطول الممارسة ، فعندما تواجه قوة غير مدربة ، وليس لديها صبر فأنت في العادة الرابح.

وسبب ثالث ليس أقل اهمية وتأثيرا يفرض نفسه على مداركي هو أنه كان لكل مدينة شرقية فيما مضى حاكمها الخاص ، ولنقل على طريقة أرسطو لم يكن هؤلاء يعتمدون على بعضهم بعضا ، ونادرا ما تحركوا بالاتجاه نفسه بل غالبا ما ساروا في الاتجاهات المتعاكسة ، ومن المقرر أنك إن تكافح في المعركة ضد خصوم هم على خلاف دائم ولهم افكار متصارعة ، خصوم لا يثق بعضهم ببعض فهؤلاء لن ينجم عنهم أي خطب ، لأن كلا منهم يخشى من حلفائه أكثر من خشيته من الصليبيين ، ولذلك فإنهم لن يستطيعوا ، أو بالحري هم ليسوا على استعداد لأن يتحدوا في سبيل طرد الخطر العام ، أو يسلحوا انفسهم لتدميرنا.

لكن الآن ، - وهذه مشيئة الرب - جميع الممالك المتجاورة لنا اصبحت تحت قيادة واحدة.

وهكذا كما أسلفنا القول ، جميع الممالك حولنا تطيع حاكما واحدا ، وينفذون ارادة واحدة ، ويلتزمون بأوامره طوعا وكرها ، وهم : جاهزون ، كقوة واحدة ، لحمل السلاح لقتالنا ، وما من واحد منهم يمكنه التورط بعمل يخدم به ذاته ، وفيه مخالفة أو عدم مراعاة لأوامر سيده ، وهذا السيد هو صلاح الدين الذي أشرنا إليه مرارا

من قبل وفي مناسبات عدة.... فهو الذي يضع هذه الممالك تحت امرته ... والأن إنني أعتقد أن هناك حاجة ملحة لأن نبذل كل جهد ممكن لمواجهة هذا الرجل العظيم والتصدي له في تقدمه السريع وفي انتصاراته المتوالية ، التي ستوصله حتما الى اوج طموحاته ، فالشعور العام أنه كلما ازداد قوة سيبرهن على انه عدو مرعب لنا "(٢) .

وكان صلاح الدين بعدما استقر في دمشق أنهى مرحلة التحرير الحلبية وافتتح المرحلة الثالثة وهي مرحلة دمشق ، وهذه المرحلة هي اهم مراحل طور التحرير وافضلها ثمارا ،فيها تقرر مصير مشروع الحروب الصليبية والوجود الفرنجي في المشرق ،ومرد هذا الى قيام معركة حطين خلالها ، وإثر حطين تحررت ،كما سنرى ، القدس وجل الأراضي المحتلة ، ولأهمية معركة حطين القصوى سنقف عند اخبارها بمزيد من التفاصيل والاهتمام.

حظيت معركة حطين بمكانة لم تحظ بها سواها ، ولا يمكننا فهم خلفيات هذه المعركة من الجانب العسكري فقط ، وبالأهمية نفسها ، إن لم يكن أعظم ،لا بد من دراسة الحالة السياسية داخل إمارات الصليبيين بشكل عام ، ومملكة القدس بشكل خاص ، والتركيز على الجوانب التي أثر بها الوضع السياسي والادارة السياسية على هذه المعركة الحاسمة .

فمن المقرر أن الحرب هي في البداية قرار سياسي ، وكذلك في النهاية هي استثمار سياسي ودبلوماسي وعسكري ، فعلى رأس المشكلات التي تثيرها الحرب تأتي مسائل استيعاب نتائج الموقعة الحربية من نصر أو هزيمة ، فالقيادة السياسية هي وحدها التي يقع على عاتقها مسؤولية استثمار النصر العسكري ضمن الخطط العامة لقرار الحرب ، وضمن المعطيات الجديدة ، بحيث يتحول النصر إلى انجاز له صفة الديمومة أو القدرة على الاستمرار.

نضيف الى هذا قضايا الترابط والتنسيق بين القيادة السياسية

والقيادات العسكرية ، ثم تأمين المساندة الشعبية للحروب التي تخوضها الجيوش ، ذلك أن أي جيش يدخل الحرب بلا ظهير شعبي لا بد أن يخسر ، وهذا يسهل علينا فهم ما حدث في حطين ، فالصليبيون كانوا غرباء في الشام ، عبارة عن أعضاء مؤسسة عسكرية بلا ظهير شعبي ، ورغم سمتها العسكرية البحتة فإن الترابط والتنسيق بين السياسيين والعسكريين كان منعدما.

فقبل حطين بفترة شهدت مملكة القدس صراعات على السلطة ، كان ابرز أطرافها ريموند الثالث صاحب طرابلس ، وخلال الصراع خسر ريموند قضيته ، وتأزمت العلاقات بينه وبين سلطات القدس ، وكان قد صار على رأسها ملك جديد اسمه «غي» فأقدم ريموند على التحالف مع صلاح الدين ، خاصة عندما عرف عزم الملك «غي» على مهاجمة مدينة طبرية - وكانت من أملاك زوجته - بغية الاستيلاء عليها.

وكان صلاح الدين قد أراد اختبار هدنته التحالفية مع ريموند والقيام باستطلاع داخل الأراضي المحتلة ، بغية استكمال وضع خططه لغزو شامل ضد مملكة القدس ، ولهذه الغاية بعث بسرية استطلاع قادها ابنه الأفضل سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م وتمكنت هذه السرية من الوصول الى أراضي الناصرة وهناك حاولت قوات فرنجية مختارة التصدي لها فأبيدت إبادة كاملة ، وعادت سرية صلاح الدين تحمل اليه من الأخبار ما شجعه على قرار التوجه في حملته الكبرى ، حملة حطين ،سيما وأن قواته كانت تعرف مهامها والأرض بشكل ممتاز فخلال العامين اللذين مضيا قاد صلاح الدين قواته الى حيث ستقوم معركة حطين بتدريبات عملية.

وكان للضربة المروعة في الناصرة أثارها على الصليبيين ، فقد أدت الى قيام صلح بين الحزبين المتصارعين في مملكة القدس ، لكن هذا الصلح كان صلحا شكليا ، وليس حقيقيا ، فالعداوات الشخصية ، والأحقاد لم تتم ازالتها ، ويرى الكتاب الغربيون أن استمرارها حتى عشية معركة حطين ليس إحدى مأسي مملكة القدس

فحسب ، ولكن في الحقيقة كانت ذات أبعاد استراتيجية عميقة ، ذلك أن التاريخ السياسي والعسكري يتداخلان بشكل مدهش.

فمن وجهة نظر الاستراتيجية نجد أن حماقة الصليبيين في المعركة ، تظهر بوضوح مدى تفوق صلاح الدين في الحكم والمناورة السياسية والعسكرية ، ذلك أنه ليس من الغلو بمكان القول بأن في هذا وحده يكمن مقياس النجاح في القتال بين جيشين كانا – على الأقل – متكافئين ، ثم إن ما قام به من ترتيبات فعليه اثناء القتال ، وبراعة في استخدامه لقواته ، خاصة في اليوم الأخير للمعركة ، يقابله اخفاق الفرنجة في تنفيذ خططهم ، وان هذا كله ترابط بانسجام مع الخطة العامة ، وجاء نتيجة لمناورته في الايام التي سبقت الملحمة الفاصلة ؛ وهو يدل على ان لدى صلاح الدين عبقرية عسكرية لاتقل عن عبقريته السياسية والادارية ، ثم علينا ان نضيف الى هذا كله ان التكتيك الذي ظهر في المعركة ، هو على درجة عالية من الاهمية ، ويبين بوضوح بعض اسس فن الحرب في الشرق الاسلامي :

فلقد اكتشف الصليبيون خلال قرن من الحملات ضد العرب والمسلمين ، ومن خلال تعاملهم مع البيزنطيين وتعايشهم مع جيوشهم ، عدم فعالية الفارس المدرع الثقيل غير المدعم بقوى من المشاة ومحروس من قبلها ، وبالنسبة لاعدائهم من العرب وللتركمان وسواهم من المسلمين فإنهم ظلوا دونما تبديل يعتمدون على الانقضاض الشديد للفرسان المدعمين بالمشاة ، وذلك حسب الطرائق العربية الموروثة ، فالعرب قديما ، وكذلك التركمان بزعامة السلاجقة فيما بعد ، اعتمدوا بشكل اساسي على سلاح قوامه الفرسان الخفاف ذوي الاسلحة المحدودة والحركات المرنة ، فقد حمل هؤلاء الفرسان كميات من النشاب مع سيف او دبوس ، وكان الصليبيون امام فرسان المسلمين النبالة بلا حول ولا طول ، فقد انهكت رشقات نبالهم المتواصلة والقادمة من جميع الجهات فرسان الصليبيين وخيولهم ، ونادرا ماقامت هذه القوات بالتصادم الالتحامي ، بل اعتمدت الطرائق الفرثية (نسبة الى الفرس القدماء

بالكر والفر وجذب العدو الى الخلف ثم الانقضاض عليه من جميع الجهات ، وكان هؤلاء الفرسان عندما يفرغون من رماياتهم ، يعلقون قسيهم الخفيفة على اكتافهم ، ويهجمون وسيوفهم ودبابيسهم بأيديهم ، ووجد الفرسان اللاتين الثقال في كثير من الحالات بأنه من الممكن حصر الفرسان المسلمين خاصة عندما يكون وزنهم مؤثرا وكتلتهم الكبيرة واحدة غير موزعة الى اقسام ، وهذا شرط نادرا ماتحقق بشكل مستمر ، فالفارس الفرنجي كان من هواة القتال وليس من محترفيه ، يندفع ضد خصمه لحظة امتطائه لحصانه وامساكه برمحه ، دون ان ينتظر الاوامر من قادته او يتأكد من انتظام صفوف رفاقه بالسلاح ، ومؤكد ان الاندفاع يدل على الحماقة لاعلى الشجاعة ، فالشجاعة هي الاقدام تبعا لاوامر العقل ، لالرغبات الغريزة ونزوات النفس الطائشة .

لذلك كان فرسان الفرنجة يجدون انفسهم بعد لحظات من القتال ، وقد غدوا عبارة من مجموعات مطوقة من قبل الفرسان المسلمين ، وكان هؤلاء الفرسان يجبرون الفرنجة على القتال بشكل متواصل ودونما راحة ، وكانت اعدادهم في كثير من الأحيان تسمح لهم بالقتال المتناوب ، بحيث تقاتل فئة بينما يأخذ البقية قسطا من الراحة.

وكان من الممكن استخدام القوس العربي الخفيف ليطلق بسرعة ولمسافات بعيدة ، لكن نشابه لم يكن من الممكن له خرق دروع الفرنجة الفولاذية ، ونظرا لاقدام الفرنجة على تغطية اجسادهم مع اجساد مطاياهم بالدروع الفولاذية ، اطلق المسلمون رماياتهم دونما تسديد ، اطلقوها اما في الفضاء نحو الاعلى ، او بشكل افقي منخفض على امل ان تصيب العلوية وهي ساقطة رأس الفارس او احدى فتحات الدروع المخصصة للتهوية ، او تتمكن الافقية من عقر خيول الفرسان في بطونها ، وعليه فإنه على الرغم من ان فرسان الفرنجة كانوا محميين بشكل ممتاز بدروع واقية ، فان الاسهم العربية كانت فعالة بشكل فظيع ضد مطاياهم ، وينبع هذا التأثير

حسبما جاء لدى المؤرخين من قدرة المسلمين على ارسال وابل من النشاب في اي اتجاه او وضع كان ومع انه ــ في القتال القريب ــ كان يمكن للاسيف والرمح والدبوس ان تؤدي دورا فعالا ، لكن السهام برهنت دائما على تأثيرها المميت ضد الخيول اكثر منها ضد الرجال .

وعندما كانت فرس الفارس الصليبي تعقر كان الفارس يتعطل عن العمل ويصبح بلا حول ولاطول ، لايمكنه بدروعه ورمحه الطويل القتال على الارض ، على عكس فرسان المسلمين ، وفي هذا المقام ينبغي ان نذكر بعدو أخر للفرسان اللاتين وهو الحر ، فالدروع المعدنية لم تكن ثقيلة جدا حتى تنهك الفارس ومطيته ، بل الذي كان يسبب الانهاك ان اللباس المعدني يحول بين الجسم وبين التعرق ، واي جسم يصاب سريعا بالانهاك عندما يتوقف التعرق ، وهنا نعيد الى الذاكرة طبيعة المناخ القاسية في جنوب الشام وفلسطين وان المعارك كانت غالبا ماتنشب في الصيف ، وفي اشد الشهور حرارة كما حدث في حطين .

وحتى يتمكن الصليبيون من معالجة هذه المواجهات القاسية كان عليهم ان يتعلموا بدرجات متعاظمة ، الاعتماد على المشاة الذين كانوا قد نبذوهم فيما مضى ، كما ان الفرنجة ادركوا اثناء ذلك اهمية التعاون المباشر بين سلاحي المشاة والفرسان ، وقد جرت العادة على حماية الرجالة بمعطف صنع من الجلد السميك المبطن بلبد سميكة من الاقمشة او فضلات الثياب ، ويغطي رجالة المشاة في بعض الاحيان بدروع صدرية من المعدن ، ويلاحظ ان هذا كله كان غير مجد ضد الاسهم ، وقد تم تسليح بعضهم بالفؤوس ، وبعضهم بالقسي الثقيلة ــ او القسي العقارة ــ وكانت القسي العقارة صعبة الحمل والاستعمال ، كما كانت تطلق طلقات اقل من القسي العربية ، لكن قوتها الخارقة كانت اعظم بكثير ، فقد كان بامكان سهامها خرق الدروع ، كما ان قدرة العقر فيها كانت اعظم ، ونتيجة لذلك نلاحظ ان هذا السلاح غالبا ماكان اداة اعاقة للفرسان المسلمين ، وخاصة النبالة منهم .

وجاء استخدام الفرنجة لجماعات من المشاة مسلحة على هذه الشاكلة ، بغية حماية الفرسان من جميع الجوانب بشكل كثيف ، عن طريق تشكيل ستارة متحركة للاجزاء السفلية من المطايا وللفرسان الموزعين ، ومع الايام غدا هذا نظاما قائما ومعتمدا لدى الصليبيين ، فقد كان الفرسان يتجمعون في بداية المعركة تحت مكان مستور او محمي ، او في بقعة مختارة ؛ ويقدمون المشاة امامهم على شكل صفوف ، ويسعون لاستدراج المسلمين للقيام بالهجوم ، وفي اللحظة المناسبة كان الفرسان الثقال ينقضون ، وكل منهم قد شرع رمحه الطويل القوي الاسطوانة ، بعدما ركز زجه في مكان معد خصيصا ، فمن المعروف ان فرسان الفرنجة اعتمدوا على قوة الخرق المتأتية من اندفاع خيولهم القوية والسريعة جدا •

وقام مؤرخ حديث متخصص بفنون القتال في العصور الوسطى بوصف هذه العملية كما يلي :

« اذا بقي المسلمون في نطاق المدى المجدي للرمايات الصليبية ، فان الفرنجة كانوا يبقون دون الرد على رمايات نشابهم التي تحولها المسافات مع الموقف الدفاعي للصليبيين الى حالة هي اقل تأثيرا مما يخشى منه ، انما اذا اقترب المسلمون فان المشاة الصليبيين كانوا يأخذون اماكنهم على الارض ، ويفتحون قسيهم الكبيرة ، ويرمون على المسلمين برمايات مجدية ومؤثرة ، وهنا كان اذا ماغامر الفرسان المسلمون بالقيام بالانقضاض ، كانوا سيسحقون حتما ، بانقضاض الخيالة الاوربيين الاعظم تأثيرا ، شريطة ان يظل مجال عملهم في نطاق مشاتهم ، ومادام الصليبيون في هذا المحيط فإنهم كانوا لايقهرون » .

وسريعا ماادرك العرب اهمية مشاة الفرنجة كسلاح رديف ، لذلك سعوا بمختلف الطرق لفصلهم عن الفرسان ، وكانوا اذا مانجحوا في ذلك يربحون المعركة ، كما هو واضح بشكل جلي في معركة حطين ، حيث ــ كما سنرى ــ قتل للفرنجة آلاف الخيول او عقرت ، وتم

سحق خيرة فرسان اللاتين ، وبالتالي تدمير المؤسسة العسكرية الاوربية في الشرق .

هذا ولقد سبق لنا البحث بالاحوال العامة قبل حطين ، كما بحثنا في اخبار قيام صلاح الدين واستلامه زمام الامور ، وتمت الاشارة الى أنه قد واجه العديد من المشاكل ، واصطدم بأتابكة الموصل وسواهم ، لذلك رحب بالفرصة التي توفرت لديه بقيام هدنة بينه وبين الفرنجة ، وذلك حتى يتمكن من حل مشاكله هذه ، ويكمل توطيد اركان دولته ، ويروى انه اصيب اثناء مسعاه هذا في تشرين الاول لسنة ١١٨٥ م ، بمرض عضال ، حتى يئس من حياته ، وعندما وقف بين الحياة والموت ، رأى ان مصير المملكة اللاتينية معلق بالميزان ، ورأى ببصيرته كحاكم شرقي ، ان موته كان معناه ، بلا شك انعدام الوحدة بين صفوف المسلمين ، والعودة الى حياة الفوضى ، حتى تتأتى فرصة جديدة لقيام حاكم قوي جديد ، وكان هذا في أبسط معانيه حياة جديدة منحت للقوى اللاتينية في سورية ، وفرصة لاتعوض لحل مشاكل مملكة القدس ، والعودة الى الاتحاد ، لكن القدر قرر العكس ، وبعدت المنية عن صلاح الدين ، وبدأ الرجل العظيم يتعافى ، وفي اذار لسنة ١١٨٦ م ابرم معاهدة جديدة مع اتابكة الموصل ، بقي بموجب بنودها الامير الاتابكي اميراً للموصل وسيداً لاعالي بلاد الرافدين ، انما مع الاعتراف بسيادة صلاح الدين والدعوة له ، وفي نيسان من هذا العام - ١١٨٦ - استعاد صلاح الدين عافيته تماما ، وعاد الى حلب ، ثم توجه في ايار الى دمشق ، وقد جاءت افراح الشعب واحتفالاته في هاتين المدينتين تعبيراً عن قلق الشعب العربي في الشام على قضيته ، وعلى مدى التعلق بصلاح الدين واتساع شعبيته .

اما والان ، وقد رد الله عليه عافيته ، وهو حاكم مصر واليمن وليبيا ، واجزاء من شبه الجزيرة العربية ، وسيد الشام بعاصمتيه : دمشق وحلب ، وسيد الجزيرة والموصل ، فقد بقي لهذا

السلطان المتدين مطمح واحد ، وهو مطمح كل مسلم ، في تحرير الارض في الساحل والداخل ، من الصليبيين ، وكان هذا بالنسبة له جهادا في سبيل الله ، وطبعا كانت القدس بالنسبة له ولجميع المسلمين هي الهدف ، فمنذ ايام نور الدين وضعت الخطط لتحرير المسجد الاقصى ، وتم اعداد المنبر لتخطب عليه خطبة التحرير الاولى،

والمستعرض لاخبار وقائع الحروب الصليبية يشهد ان المسلمين قد قاتلوا دائما بحماس وغيرة دينية كبيرة ، وهذه المعركة لن تكون مستثناه ، بل على العكس ، فهم نادرا ماقادهم رجل مثل صلاح الدين ، كان متميزا بتقواه وعدله واستقامته ، كتميزه في القيادة وفي فنون الحرب والادارة والسياسة ، ولهذا كان رجلا محبوبا من قبل شعبه الى درجة التقديس ، ولقد قيل بأن مرض صلاح الدين ملأه بشعور عميق ، بأن ماقام به حتى ذلك الحين من خوض للحروب الداخلية قد تجاوز الحد ، وان الله تعالى قد انذره بهذا المرض وذكره بأن واجبه هو طرد اللاتين من بلاد الشام ، ورجل مثل صلاح الدين مشهور بتقواه لابد انه قد شعر بضرورة الاسراع بالهجوم من اجل التحرير ، ومهما يكن الحال فإنه لابد وقد غضب غضبا شديدا جدا عندما علم بهجوم ارناط صاحب الكرك ، على قافلة مسلمة في اوائل سنة ١١٨٧ م كانت في طريقها الى دمشق ، فالهدنة الآن مع الفرنجة قد زالت ، ومسوغ إعلان الجهاد قد توفر تماما .

وفي ربيع سنة ١١٨٧ م دعا صلاح الدين الى الجهاد ، وبينما كانت القوات تتوافد من جميع اجزاء دولته الكبرى وتوابعها ، قامت التحضيرات من اجل غزو فلسطين ، وبينما كانت القوات تتجمع ، ارسل صلاح الدين ابنه الافضل على رأس قوة استطلاع ، وكان لنجاح هذه القوة المدهش في الناصرة عظيم الفوائد في تشجيع السلطان على المضي في خططه ، وفي خفض معنويات الصليبيين ، وبعد هذا بوقت قصير أوعز صلاح الدين الى واليه في حلب للقيام بإمضاء هدنة مع فرنجة انطاكية ، حتى تتمكن عساكر حلب من الاشتراك في الحملة ، وقد طلب صلاح الدين هذا على ارضية الخلافات الحادة التي كانت قائمة بين القدس وانطاكية .

وكان مكان تجمع الجيوش لعرضها عند تل عشترا في احواز بلدة نوى على مقربة من حدود الاراضي المقدسة ، شرقي بحيرة طبرية ، ومع حلول الاسبوع الثالث من حزيران ، وصل جميع الجند ، حتى المتأخرون من العساكر واهالي البلدان النائية ،وفي ٢٤ من الشهر نفسه عقد صلاح الدين مجلسا حربيا لتدارس الاهداف الاستراتيجية ووضع الخطط ، او لنقل الشكل التنفيذي للخطط ، وصدر الامر إثر الاجتماع بغزو المملكة اللاتينية ، وكان عدد القوات التي مرت امام عارض جيوش صلاح الدين حوالي العشرين الفا من العساكر الديوانية والمتطوعة ، ويقدر أن الذي تجمع للفرنجة العدد نفسه عند المقل والضعف عند كثير من الكتاب المنصفين.

لسوء الحظ لم يقدم لنا احد من المؤرخين وصفا مفصلا لجيش صلاح الدين وانواع القوات والاسلحة فيه ، انما يمكن القول قياسا على ماأوردته مصادر العصر ، وبناء على التكتيك الذي اعتمد اثناء المعركة ، ونجح استخدامه ،ان النبالة من مشاة وفرسان شكلوا العنصر الاساسي ، وهذه قاعدة جرت مجرى العادة في الجيوش الاسلامية في المشرق ، منذ بداية العصر السلجوقي ، هذا ونلاحظ ان الروايات العربية واللاتينية التي تحدثت عن وقائع ملحمة حطين شددت على تأثير نشاب الرماة المسلمين اثناء القتال ، ونشير هنا الى انه على الرغم من ان القوس كان السلاح الرئيسي لعسكر صلاح الدين من فرسان ورجالة ، الا ان العادة جرت ان يحمل كل منهم بالاضافة الى قوسه سيفا او دبوسا او ماشابه ذلك من الاسلحة الفردية التي كان المقاتل يلجأ الى استخدامها في القتال الالتحامي القريب وبعد نفاد نشابه ، يضاف الى ماسبق انه يتوجب علينا هنا ان نشير الى ان قوات المتطوعة كانت خفيفة التسليح ، اشبه بالميليشيات ، وقد رأى بعض الكتاب انها كانت تقابل القوات الاحتياطية لدى الفرنجة ، لكن في هذا شيء من التجاوز ، فقوات الاحتياط لدى الفرنجة وان كانت خفيفة التسليح نسبيا ، الا انها كانت محترفة ، وعلى هذا فنحن اذا ماشينا من قال بأن تعداد القوات الصليبية كان حوالي العشرين الفا من العساكر ، فان

الطاقة القتالية لهذه القوات كانت لاتقل عن ثلاثة اضعاف قوات صلاح الدين نظرا للاحتراف ونوعية التسليح ، وهنا نعيد الى الذاكرة الوصف الذي ساقه وليم الصوري الذي اثبتناه قبل قليل ، مع حقيقة انه في كثير من المعارك التاريخية كانت القوات المهاجمة ادنى عددا وتسليحا من القوات المدافعة ، وحققت النصر ، ويبدو ان بعض عساكر صلاح الدين كان تسليحهم ثقيلا ، وكانوا مدرعين مع خيولهم ، وقد رابط هؤلاء مع خيولهم قرب قاعدة العمليات ، وتألف منهم حرس صلاح الدين الخاص .

وكان صلاح الدين شديد التدين يراعي قواعد الشريعة ، ويتمسك بما جاء في السيرة النبوية ، خاصة ، أثناء مغازيه ، وعلى اساس هذه القاعدة نجده يأمر بإزالة معسكره في يوم الجمعة ٢٦ حزيران/ومعلوم ان الجمعة هو يوم جماعة المسلمين ، يتوجه فيها الخطباء بالدعاء على جميع منابر الاسلام للمجاهدين في سبيل الله بالنصر المؤزر ، ولهذا جاء امر صلاح الدين بازالة المعسكر وقت الصلاة ، في الظهيرة ، وفي اليوم التالي ـ السبت ـ عبر نهر الاردن جنوب بحيرة طبرية ، واتخذ قاعدة له قرب شاطىء النهر ، وهكذا بدأ الهجوم فعليا .

ولم تكن تحركات صلاح الدين خفية ، لهذا قابلها في القدس اجراء كافة الاستعدادات ، ففي اوايل ايار بعد نازلة الناصرة التي حلت بالصليبيين على ايدي طلائع صلاح الدين ، جرت مصالحة بين غي ملك القدس الجديد ، وريموند الثالث خصمه وصاحب طبرية وطرابلس ، وذهب الفرقاء الى مدينة القدس حيث جرى احتفال بهيج باتحاد القوى الصليبية ، وبعد الاحتفالات طلب ريموند الاذن للعودة الى طرابلس ، فأوعز اليه الملك ان يجمع عساكره ، ويلتحق به في مكان تقرر لحشد وتجميع الجيوش الصليبية في بلدة صفورية ، وذلك لما تأكد لديهم من معلومات بان صلاح الدين يعد العدة لهجوم عام ، واشار ريموند على الملك غي بمراسلة بوهموند صاحب انطاكية ينشد منه المساعدة ، ونفذ غي ذلك ، واستجاب بوهموند

استجابة رمزية ، فقام بارسال اكبر ابنائه مع خمسين من الفرسان وعندما توجه الصليبيون نحو بلدة صفورية لم ينسوا جانب الدعم الروحي فاخرجوا خشبة صليب الصلبوت ، وطلبوا من بطريرك القدس حملها فرفض ، وذكر « الرفض المشين للبطريرك » عقول الناس بنبوءة وليم الصوري ، فقد قال صاحب ذيل تاريخ وليم الصوري : « وبعد هذا ارسل الملك رسالة الى البطريرك ليخرج صليب الصلبوت ويجلبه الى الجيش ، فاستجاب ، واخذ الصليب ، وحمله الى خارج القدس ، واعطاه الى راعي القبر المقدس ، وطلب منه ان يحمله الى الملك ، لانه هو نفسه لديه عذره ، ولن يستطيع الذهاب ومن الصعب عليه الالتحاق بالجيش (ويدع السيدة باسك دي رفري) وتم تنفيذ هذا كله ، وبهذا تحققت نبوءة وليم رئيس اساقفة صور ، التي قالها عندما انتخبوه بطريركا : (هرقل استرد الصليب من الفرس ، واعاده الى القدس ، وهرقل ـ البطريرك ـ سيرمية ، وفي ايامه سيضيع) ففي ذلك الوقت بالذات قذف هرقل بالصليب الى خارج القدس ، وبهذا لم يعد اليها ثانية ، بل فقد في المعركة كما سنسمع » .

وعندما وضع صليب الصلبوت بحفظ الملك ورعايته ، اشار عليه جيرالد مقدم الفرسان الداوية ، بان يعلن النفير العام في طول الارض وعرضها ، ويدعو جميع الرجال المخلصين والقادرين على حمل السلاح للالتحاق بخدمته ، وكان مثل هذا الاجراء يجري تطبيقه والاخذ به عندما تكون الحالة شديدة ، والوضع متأزم بشكل خاص ، وهناك حاجة ماسة الى مزيد من العساكر اكثر مما كانت تقدمه الاقطاعات في العادة ، وفي هذا الوقت كان جيرالد قد تسلم هبة مالية كبيرة كان قد بعث بها هنري الثاني ملك انكلترا الى جماعة فرسان الداوية (بعد مقتل القديس توماس اوف كانتبري) وقام جيرالد بدوره بالتبرع بهذا المال للملك ، وقدمه له ، وتقبل الملك مال الهدية بسرور زائد ، واستخدمه في تجنيد المزيد من الفرسان والرجالة .

وتوجه ريموند الثالث الى مدينة طبرية ، من اجل تحصينها ، ليترك بها حامية مناسبة ومؤن كافية لحصار طويل ، وترك ريموند زوجته في طبرية ، وكانت بالاصل اقطاعا لها ، وقبل مغادرته لطبرية اوصى زوجته انها اذا ما هوجمت مدينتها بشدة متناهية من قبل صلاح الدين الى درجة عجزت فيها عن الاستمرار بالمقاومة ، عليها مغادرة المدينة ، وان تركب مع من يبقى معها في القوارب الى طرف البحيرة المقابل ، حيث تنتظر هناك قدوم المساعدات والنجدات ، ولا ندري عدد الرجال الذين تركهم معها ـ ان كان قد ترك احدا ـ وقبيل مغادرته لطبرية حمل معه ما كان بالمدينة من اموال واصطحب معه اولاد زوجته الاربعة وهم : هيوج ، وليام ، رالف ، واوتو ، والتحق بالملك في بلدة صفورية ، ومعه رجال طرابلس والذين قدموا برفقته من طبرية ، ويلاحظ ان المصادر الغربية تبدي اعجابها الشديد بشجاعة صاحبة طبرية ، لقبولها البقاء في مدينتها والمرابطة بها مصاقبة لصلاح الدين وجيوشه ، وحيدة فيما عدا حامية صغيرة ، وكيف انها سمحت لزوجها ليس في مغادرتها فقط ، بل باصحابه اولادها الاربعة ، ويرى الغربيون في عملها هذا مثلا رائعا على وقف النفس وتكريسها من اجل قضية تؤمن بها ، ومهما يكن الحال ، فان هذا يوضح مدى التعصب والحماس الشديدين اللذين ابداهما العديد من الجنود الصليبيين ورجالاتهم ـ فيما بعد ـ للذهاب فورا لانقاذها ، اثر ما قام به صلاح من مهاجمة المدينة ، ومع هذا كله ، فان ريموند الثالث ، العارف بصلاح الدين والخبير باخلاقه وتصرفات المسلمين ، كان يشعر بان زوجته في مأمن تام ، ولا خطر عليها البتة ، وان اولادها معه افضل لهم واكثر امنا من بقائهم معها ، ورغبته التي ابداها فيما بعد ، عندما ضيق صلاح الدين الخناق على طبرية ، هي دليل على انه كان مطمئنا من ناحيتها ، وانها ستكون بامان تام ، فصلاح الدين كان ـ بلا شك ـ مازال ـ طبعا ـ بحدود ما تسمح به الظروف ـ صديقا ـ ثم اخلاق صلاح الدين قالت دائما : انه حتى لو سقطت مدينة طبرية ثم قلعتها ، فان زوجة ريموند ستعامل من قبل المسلمين معاملة طيبة سامية وهذا ما حدث بالفعل بعد شهر واحد .

واجتمع الجيش الصليبي في بلدة صفورية ، وكان اكبر جيش يجتمع لفرنجة المشرق منذ سنوات عديدة ، يضاف الى هذا ، انه ـ بلا ريب ـ كان من اكبر الجيوش في تاريخ الصليبيين في بلاد الشام ، وتتباين المصادر بشدة في تقديرها تعداد الجيش ، ويبدو ـ حسب ادنى التقديرات ـ ان الرقم فاق العشرين الفا ، اي ما يقارب تعداد جيش المسلمين ، انما مع فوارق اشرنا لها من قبل ، نضيف اليها امرا آخر ، هو ان الجيش الصليبي لم ينعم بوجود ظهير شعبي له او احتياط محلي ، على عكس جيش صلاح الدين ، فالصليبيون ، برغم المدة الطويلة التي مرت على تاريخ وجودهم في المشرق ، كانوا عبارة عن افراد مؤسسة عسكرية غريبة ومرفوضة من كافة النواحي ، وبامكاننا هنا اعطاء فكرة واضحة الى حد ما عن مختلف القوات والاسلحة التي تكون منها جيش الفرنجة : لقد كان هناك اولا الفرسان ذوو التسليح الثقيل ، فيه بارونات ـ او امراء ـ الاقطاع ورجالاتهم ،واعضاء جماعتي الداوية والاستبارية ، وأولئك الذين حملوا رتبة الفروسية ، وكان بامكانهم تقديم المعدات والسلاح ، ويستفاد من المصادر اللاتينية خاصة ، انه كان لدى الفارس الصليبي في غالب الاحيان ، الى جانب دروعه الكاملة وخوذته وسلاحه ، فرس او فرسان كان يجنبهما ، وكان عدد الفرسان الثقال حوالي / ١٢٠٠ / وهو احد الارقام الدنيا التي اعطتها المصادر الغربية ، وجاء بعد الفرسان الثقال الخيالة الاخف تسليحا ، وقد رافق هؤلاء الفرسان الثقال ، وعملوا معهم بمثابة مساعدين واتباع وكانوا يعرفون باسم السيرجانتية .

وميز هؤلاء في معركة حطين كسيرجانتية فرسان ليتميزوا عن السيرجانتية الاصلاء ، الذين كانوا بالاساس رجالة يجري تسلحهم على حساب الكنيسة والمؤسسة الدينية ، وذلك غالبا ما كان بشكل ثقيل ، ولم توضح المصادر تعداد السيرجانتية الخيالة وحدهم ، انما لابد ان تعدادهم فاق تعداد الفرسان الثقال ، ويبدو ان تعدادهم مجتمعين مع الفرسان الثقال تراوح ما بين ثلاثة الى اربعة الاف .

والى هؤلاء الفرسان والخيالة نضيف جماعة ثالثة من الخيالة ، وهي جماعة الخيالة « الرديف » وكان تعداد هؤلاء لا يقل عن تعداد السيرجانتية الخيالة ، وقد عرفوا باسم التركبلي وكان هؤلاء كما هو معتقد من المرتزقة من مزيج من اناس من اصل اغريقي ومشرقي (من بين الطوائف والاقليات) وجرى تسليح هؤلاء حسب الطريقة الاسلامية ، اي كانوا فرسانا نبالة ، ولهذا كانوا ذوي فعالية عالية في المناورات السريعة وفي عمليات الانقضاض المفاجيء ، وخاصة في منطقة ذات مرتفعات مثل مرتفعات طبرية ، حيث كانت جماعات الفرسان الثقال في وضع حرج غير مريح ، وكان هؤلاء يوضعون في العادة تحت الامرة المباشرة لمارشال مملكة القدس ، وكانوا رواديف اي قوات احتياطية ، تابعة بشكل خاص لكل من جماعات فرسان الاسبتارية والداوية ، الذين كان لديهم ضابط خاص معين لقيادتهم باسم التركبلير •

وجاء بعد القوات المحمولة : الرجالة ، وكان فيهم المشاة السيرجانتية الذين تبعوا نظاميا للاقطاعيين ، وتولت الكنيسة والمؤسسات الدينية الانفاق عليهم ، ثم المشاة من الرجال الذين التحقوا بالخدمة العسكرية بسبب النفير العام الذي أعلنه الملك ، وقدر المعاصرون الغربيون لمعركة حطين تعداد هؤلاء مابين سبعة آلاف إلى عشرين الفا ، ويرى بعض الباحثين في أيامنا أن الرقم الأول صغير جدا ، لكن لم يكن هناك أكثر من خمسة عشر الفا من المشاة على أبعد تقدير ، ومهما يكن الحال ، فاننا نلاحظ أنه اذا كان الفرسان الثقال والسرجانية ـ من خيالة ورجاله ـ تابعين للمؤسسات الاقطاعية المدنية والكنسية ، وكانوا يؤدون خدمات مقابل الارتباط الاقطاعي ، فإن قسما كبيرا من الجيش كان من القوات المأجورة ، فالتركبلي ولربما معظم المشاة ايضا ، كانوا من المرتزقة المحليين ، فقد رأينا الملك غي يشتري بأموال الهبة الانكليزية أعداداً كبيرة من الفرسان وأنواع أخرى من الخيالة ، ومن المحتمل أنه أنفق كمية من أموال الهبة الانكليزية على السيرجانتية ، بأن يقوم كل واحد من رجالاته بعرض شعار (رنك) ملك انكلترا ،

ويدعي بعض الكتاب في أيامنا ، بأن تعداد الفرنجة في المشرق ما كان ليمكن من تجنيد عساكر أكثر مما تجمع في صفورية دون تـرك مـدن المملكة ـ مملكة القدس ـ مع الأجـزاء الشـمالية دونمـا دفـاع تماما •

ومع حشد الفرنجة لهذه القوات الكبيرة جدا ، برزت أمـام الملك غي والكونتات مشكلة التكتيك والاستراتيجية : كيف يمكن استخدام هذا الجيش اللجب بشكل نافع ومؤثر ، ثم لماذا جمع كله في معسـكر واحد ، ولم يوزع على المواقع الدفاعية للمدن والقـلاع ، او قيد إلى خارج حـدود المملكة لمنع صـلاح الدين مـن اجتياز نهـر الأردن ؟ واختلفت أراء قادة الفرنجة حول هذا الموضوع الخطير ، وكان رأي ريموند الثالث منذ البداية اعتماد سياسة الانتـظار والمطـاولة حيث خاطب الملك بقوله : « أشير عليك يامولاي وانصحك كمـا وأقتـرح عليك أن تشحن مدنك وقـلاعك بـالرجال والمؤن والسـلاح ، وبقية انواع الاعتدة الدفاعية ، وعلى الرغم من أن أمير أنطاكية أرسل لك ولده مع خمسين من الفرسان ، جدد مراسلتك له ، واطلب منه المزيد من الرجال ، وابعث رسـالة إلى بلدوين صـاحب ابلين (يبنى) ، واخبره بأن صلاح الدين دخل إلى اراضي المملكة مع جيش عرمرم ، واعلمه أن عليه الحضور شخصيا لتقـديم المسـاعدة للمملكة ، ذلك انني اعرف أن صلاح الدين سيمكث ، وقد يقيم طويلا ، وكمـا تعلم فنحن الآن في منتصف الصيف ، وهذا أعظم الأوقـات حـرارة على مدار السنة ، ولاشك أن وحشة المكان ، والمناخ الحار سيضايقانه ، وسيشغلانه ، واثناء ذلك يكون أمير أنطاكية وبلدوين صـاحب ابلين قد توفر لهما ما يكفي من الوقـت ليصـلا إلينا ، وهنا بينمـا يكون صلاح الدين شاعرا بالأمن ، مطمئنا نكون نحن قد صرنا جاهزين ، فنقوم بمهاجمة مؤخرة قـواته ، وننزل بها ضربـة قـاصمة ، بشكل ـ بمشيئة الرب ـ تمكن من إبقاء مملكتكم حية وبأمان » •

ليس بالمصادر مـا يفيد أن نصـيحة ريمـوند هـذه وأراءه كانت مسموعة واخذ بها ، ذلك انه لم يكن هناك أي قتال مباشر حتى بعـد

دخول صلاح الدين إلى أراضي المملكة ، كما أن أيا من القوات لم يرسل إلى الحصون والقلاع لتقوية دفاعاتها ، وهذا ما سيظهر جليا بعد نصر حطين ، حيث كان من السهل نسبيا الاستيلاء على معظمها .

ووقع الاختيار على منطقة صفورية لتكون قاعدة للقوى اللاتينية ، لما تمتع به هذا الموقع من مزايا محددة وفوائد كبيرة بالنسبة لهذه الحملة خصيصا ، فصفورية كانت آنذاك عبارة عن بلدة صغيرة غير مسورة ، من ممتلكات صاحب طبرية ، تقع على مسافة ثلاثة أميال أو أربعة من الناصرة ، إلى الشمال الغربي منها ، وكان إلى الجنوب منها على مسافة ميل واحد نبع ماء وجدول جار ، وهو ما عرف باسم نبع الصفورية ، وعلى هذا كان الماء وفيرا في هذا الموقع ، وكان كافيا لجيش كبير جدا ، في فصل الحر ، وكان هناك مع الماء كميات وافيه من المؤن ، سهل تأمينها من القرى المجاورة ، هنا في هذا الموقع المناسب أقام الصليبيون معسكرهم ، وأقاموا ينتظرون وصول صلاح الدين .

وعلى بعد خمسة عشر ميلا أو ستة عشر جثت مدينة طبرية على الشاطىء الغربي للبحيرة ـ التي حملت اسمها ـ وذلك على مستوى ستمائة قدم تحت سطح البحر ، وترتفع الأرض خلف المدينة ، وتمتد جنوبا منها ، بشكل حاد إلى مستوى ألف قدم فوق سطح البحر ، وتمتد جنوبا محاذية للبحيرة ، وتشكل شرفا صخريا له ارتفاعات متساوية تقريبا ، ويبدأ هذا الشرف ، في مقابلة المدينة مباشرة ، بالانحراف باتجاه الشمال الغربي ثم باتجاه الغرب ، وعلى مسافة خمسة أميال إلى الغرب هناك تل مزدوج القمة ارتفاعه فوق ألف قدم ، ويعرف باسم « قرني حطين » وهو مكان احتفالات طقوسية موسمية (عيد النبي شعيب) وبمتابعة التوجه غربا يصل الشرف الى أقصى ارتفاعه وهو سبعمائة والف من الأقدام وذلك عند جبل ترعان على بعد خمسة أميال ، وتقع قرية حطين على مسافة قصيرة الى الشمال مباشرة من « قرني حطين» في الوادي ، ويمكن

أن يرى ارتفاع هذه الهضاب من الشرق والشمال ، اي من طبرية وحطين ، حيث أنها لاتبدو هكذا من الجنوب والغرب ومرد هذا جزئيا أن الشرف يرتفع من شواطيء بحيرة طبرية من مستوى ستمائة وعشرين قدما تحت مستوى سطح البحر ، وجزئيا أن الارض الى جهة الجنوب والغرب عبارة عن هضبة بخطوط ارتفاع متساوية تتراوح من ثمانمائة الى ثمانمائة وخمسين قدما ، وهي مليئة بصخور كبيرة ومقطعة بالوديان التي قد تنتهي الى الأرض المنخفضة شمال شرقي صفورية أو جنوب شرقي وادي سهل الأحما(كفر الأحما) ، (٤) وقد قام رحالة حديث بوصف الأرض الواقعة قرب قرني حطين في مطلع القرن الحالي كما يلي:

« كما رأينا على هذا الجانب ـ الجنوب ـ ان التل ، أو الجبل ، هو عبارة عن عقبة صخرية منخفضة ، يبلغ ارتفاعها حوالي ثلاثين أو اربعين قدما ، وطولها أكثر من عشر دقائق من الشرق إلى الغرب ، وينبعث في نهايتها الشرقية قمة أو « قرن » إلى ارتفاع حوالي ستين قدما فوق السهل ، وهناك على النهاية الغربية قمة « قرن » أخرى ليست بنفس الارتفاع ، ويبدو منظر هاتين الكتلتين عن بعد وكأنه سرج فرس ، وقد دعيا باسم قرني حطين ، ويمتد هذا التل بمجمله ليساير أطراف السهل الكبير حيث يرتفع منها الجانب الشمالي للتل بشكل انزلاقي شديد إلى علو ليس أقل من أربعمائة قدم ، ودون ذلك في الأسفل إلى الجنوب تقوم قرية حطين ، وهناك باتجاه الشمال والشمال الشرقي كتلة صخرية ثانية مندفعة أيضا تنساب بشكل منحدر إلى مستوى البحيرة .

إن قمة القرن الشرقي مستديرة قليلا ، وسطح قمة المنخفض بين القرنيين هي ايضا منبسطة على شكل سهل...».

وتشير خرائط ما قبل الحرب العالمية الثانية إلى وجود ممرين كانا يعبران التل ، سار أحد الطريقين من الشرق مباشرة من مدطقة في أحواز صفورية ، وعبر التل الى الجنوب من طبرية مباشرة ، لكن الطريق الآخرين كان ينحرف شمالا في منتصف الطريق بين صفورية

وطبرية ، ويماشي في الغرب حوالي قرني حطين ، ويستمر باتجاه الشمال منحدرا إلى قرية حطين ، ويتابع انحداره هابطا باتجاه الشرق إلى شواطيء بحيرة طبرية ، وعلى الرغم من أن طرق العصر الحديث يمكن أن لاتتماشى مع طرق القرن الثاني عشر ، لكن الأوصاف المعاصرة للصليبيين ، والروايات التي شرحت أوصاف مسيرة جيوشهم من صفورية تبين بأنهم ساروا أولا عبر طريق مباشر ، ساروا باتجاه الشرق يريدون مدينة طبرية ، ثم انحرفوا في منتصف الطريق شمالا نحو ممر قريب من القرنين ، وواضح أن في هذا مطابقة تامة للطرق قبيل أيام الاستعمار الانكليزي لفلسطين .

ويعبر هذان الطريقان بين صفورية وتل قرني حطين مع ما يجاوره من الأراضي المرتفعة حوالي عشرة أميال من الأراضي الصخرية التي تأخذ شكل هضبة ، وهي منطقة بلا ماء ، أو على الأقل بلا نبع غزير أو جدول فيه مياه كافية لجيش كبير أثناء زحفه في أشهر الصيف الحارة ، وكان هناك ماء وفير وراء هذه السلسلة من الكتل الصخرية : في الشمال من حطين أو في الشرق حذاء البحيرة ، وقرب مدينة طبرية ، وكان هناك ماء الى الجنوب في وادي سهل « الاحما » ، لكن على الطريق المباشر مابين الكتلة الكبيرة غربي طبرية ، ومعسكر الصليبيين في صفورية لم يتوفر منه شيء ابدا .

ولذلك كان البديهي أن مصلحة الصليبيين قامت في البقاء حيث كانوا في صفورية ، وذلك بعدما أحجموا عن منع صلاح الدين من عبور الأردن ، وتركوه يزحف نحو طبرية ، ففي منطقة صفورية كان الفرنجة متأكدين من توفر المياه لديهم والمؤن الوفيرة ، ولقربهم من قلاعهم وبلدانهم المسورة ، وكان عليهم الآن المكوث في صفورية لانتظار هجوم صلاح الدين ، فهم كانوا على ثقة واطمئنان ، فقد حشدوا أكبر جيش كان ملك فرنجة للقدس يأمل بحشده ، وكان بإمكانهم دوما ـ عندما تدعو الضرورة ـ الانسحاب الى المدن والحصون الشديدة المناعة قرب الساحل ، ووضح بعد عبور صلاح

الدين للأردن أنهم اذا ما غامروا بالتقدم باتجاه اي هدف في الشرق ، فسيكون بإمكان صلاح الدين اجبارهم على خوض معركة حسب مشيئته وقبل الوصول الى الماء ، وانئذ سيكون الانسحاب صعبا ، ان لم يكن مستحيلا ، خاصة وانه لم يكن لديهم في الداخل قوات احتياطية لدعوتها لنجدتهم والتفريج عنهم ، ويصرخ كاتب امريكي معاصر أثناء حديثه عن هذه الحالة باندفاع عاطفي وتحرق شديدين قائلا :« دع المسلمين يغامرون بالزحف داخل الهضبة التي بلا ماء ، دعهم ينالهم الانهاك بعد زحفهم تحت أشعة الشمس المحرقة »! ....

ولكن الحرب لم تكن بالنسبة لصلاح الدين مغامرة او هواية ، بل ان حملته كانت قرارا استراتيجيا له ابعاده السياسية والعسكرية التكتيكية ، وقرار صلاح الدين تم بعد دراسة شاملة وا ستطلاع اخباري وميداني واسع ، فهو بعد عبوره للأردن كان يدرك تمام الادراك أحوال الفرنجة الداخلية ، ويعرف سلامة أوضاعهم وطاقاتهم حيث هم ، لهذا كان عليه ان يحاول بمختلف الوسائل اقتلاعهم من قاعدتهم في صفورية واستدراجهم الى شراك ينصبها لهم ، وسبق ان ذكرنا بأنه عبر على راس قواته نهر الأردن جنوب بحيرة طبرية في أواخر شهر حزيران ، وعسكر ليلته الأولى قرب ضفاف النهر ، وتبعا لاحدى الروايات كانت قواته معبأة بشكل قاد فيه القائد تقي الدين الميمنة ، والقائد مظفر الدين الميسرة واحتفظ صلاح الدين لنفسه بإمرة القلب ، ومكث الصليبيون بعد عبوره للأردن في صفورية ، فحرك صلاح الدين قواته إثر ذلك الى منطقة « كفر سبت » على الطرف الجنوبي للسهل ، إنما الى الغرب من المنطقة الجبلية ، حيث ظل الماء لديه وفيرا ، وجهد من هناك في سبيل تجريكهم واقتلاعهم عن طريق المناوشات ، لكن عبثا حاول واخفقت هذه الطرائق في إثارتهم ، وفي هذا دليل واضح على أن غالبية الفرنجة ظلوا حتى ذلك الوقت متحلين بالصبر والحكمة ، متمسكين بقرارهم في الاستفادة من وضعهم المناسب ، وهنا قرر صلاح الدين أن يغامر بكل شئ ، إنما بشكل

مدروس وفي غاية البراعة ، على أنه والحق يقال كان تحركا خطرا أيضا ، لقد قرر مهاجمة مدينة طبرية بالذات .

وليس من الواضح تماما في روايات المؤرخين انه كان على معرفة مسبقة بوجود زوجة ريموند في طبرية ، إنما والرجل كان لديه جهاز استخبارات متين ، لاشك أنه كان على بينه من هذه الحال ، ومهما يكن الأمر ، فإن صلاح الدين كما يبدو ، قدر ، وجاء تقديره صحيحا تماما ، بأن هجوما على طبرية ، يعرض أميرة طرابلس للخطر ، لابد وأنه سيبعث روح الفروسية لدى الصليبيين ، وسيثير العناصر المضطربة والمتمردة بينهم ، ويجعلها تحاول الزحف عبر التلال الجرداء لتلك المنطقة ، مع أن مثل هذا الزحف كان سيجعل الجيش الصليبي في موقف غير مناسب ومدمر .

لقد كانت الأميرة البيزنطية ، أنا كومينا ، من شهود الحملة الصليبية الأولى ، وكانت بارعة عميقة الأحاسيس ، لديها قدرات وصفية للسمات والأخلاق نافذة لاتحد ، وقد قامت في أكثر من مكان في كتابها « الألكسياد » بوصف أخلاق وسلوكية فرسان الفرنجة ، وهنا نجد : سهولة في الاثارة ، اندفاع شديد أحمق ، واصرار لاتراجع فيه ، ولامبالاة بالموت ، متى ما اتخذ الفرنجي قراره ، أو وقع هواه على أمر ما ، ولاشك أن صلاح الدين كان يعرف هذا وزيادة ، كما كان يعرف العلاقات الداخلية بين قادة الفرنجة ، لهذا قام بمغامرته المدروسة في الهجوم على طبرية ، فأثار الفرنجة وجعلهم يغامرون لعبور الطريق بين صفورية وطبرية ، وهو طريق كما سلفت الاشارة ، كان يقوم وسط المنطقة الجرداء الجافة ، وما أن يسلك ، فلا مخرج منه ، وعلى الصليبيين انئذ أن يغامروا بالسير فيه طويلا بلا ماء ، وكان على صلاح الدين العمل ـ وكله أمل ـ في تمزيق الجيش العرمرم قبل أن يتمكن من الوصول الى أحد المرين فوق تل حطين ، والوصول الى مياه البحيرة .

وعلى هذا الأساس قام صلاح الدين في يوم الثلاثاء الثاني من

تموز ، بوضع الجزء الأساسي من قواته فوق المرتفعات تحت الشرف الصخري الى الغرب من طبرية ، حيث تمكنت من اغلاق الطريق المباشر الى المدينة ، وظلت تتحكم بالممرات والقدرة على تأمين المياه لأنفسها ، وكان بإمكانها ـ كما ظهر فيما بعد ـ التحكم بطريق الوصول عبر الممر الآخر ، لكن لابد من الاشارة هنا بأن هذا الجيش قد تمركز في مكان بحيث إن الهزيمة بالنسبة له كانت أبسط معانيها كارثة الفناء والموت غرقا ، فوجود البحيرة ونهر الأردن في خلفه ، كان سيجعل الانسحاب في غاية الصعوبة ، ان لم يكن مستحيلا في ظروف الفرار بعد القتال ، ومع هذا كله نجد ان صلاح الدين قام بنفسه بالهبوط على رأس قطعة صغيرة من قواته على طبرية ، ونجح بسرعة في الاستيلاء على المدينة ولم يستغرق الأمر أكثر من ساعة من الزمن ، لكن حصن المدينة صمد ولم يسقط له ، وهناك اعتصم كل من الأميرة مع حاميتها الصغيرة ، وقامت هذه السيدة على الفور بتدبيج رسالة انفذتها الى الجيش الصليبي المعسكر في صفورية تصف سقوط طبرية ومانزل بها وبمن معها من ضيق شديد وخطر مخيف .

لقد استطاعت اميرة طرابلس بطريقة ما تأمين رسول تسرب بالرسالة ، حتى اوصلها الى المعسكر الصليبي مساء يوم الخميس ، ويتساءل المرء هل تسرب الرسول ببراعته الشخصية ، أم أن عين رجالات صلاح الدين شاهدته ، لكن تركته يذهب ، فهذا كان موجودا في اصل الخطة ، المهم أن الرسول أخبر الصليبيين بأنهم مالم يهبوا بكل سرعة وحماس الى تقديم المساعدات والنجدات لطبرية ، فإن المدينة سيتم فقدانها الى الأبد ، وانه غادرها والمسلمون يقومون بأعمال النهب والاحراق في اجزاء المدينة .

لقد خلقت هذه الرسالة ازمة استراتيجية للصليبيين ، فهم يرغبون الآن رغبة شديدة ـ وقد طال بهم القعود ـ بالتحرك والاقدام على تخليص طبرية وانقاذ الأميرة المحاصرة ، وتشعبت اراء القادة

حول هذا الموضوع ، وتوحدت عواطف الفرسان ، وكان راي جيرالد مقدم الداوية وارناط صاحب الكرك مع غالبية الفرسان بأن عليهم التحرك في الصباح الباكر ، وقالوا بأن الشرف ومثل الفروسية يتطلبان ، لابل يفرضان ذلك ، قالوا ذلك تحركهم عواطفهم وغرائزهم ، مع أن مثل هذا التحرك كان من أشد الأعمال حماقة ، وفي الطريق الى طبرية كان هناك عشرة أميال من الأراضي الوعرة الجافة الصعبة المجاز ، كما كان ايضا جيش صلاح الدين المتمركز تحت الشرف والمتحكم بالممرات والمغلق لها جميعا ، لقد كان ـ في الحقيقة ـ شر ك منصوب لهم ، لكن « الطعم » كان مغريا لأصحاب العواطف الجياشة .

وبعدما وصلت الأخبار الى مسامع الملك غي ، أقدم على الفور فوجه الدعوة لجميع البارونات ورجال الاكليروس لعقد مجلس حربي ، وفي بداية الاجتماع أخبر الملك الحضور بفحوى الرسالة التي تسلمها من صاحبة طبرية ، وبعد ماطلعهم على الأخبار التي حملها الرسول ، التفت أولا نحو ريموند الثالث صاحب طرابلس ، لالمكانته وعظيم خبرته ، وطول تجاربه فحسب ، لكن لأن مدينة طبرية المهاجمة مدينته ، وزوجته هي الأميرة المحاصرة ، وهي صاحبة الرسالة ، والمهددة بالخطر ، وخاطب غي ريموند بقوله:« ما رأيكم ياسيدي ، وما هي النصائح التي يمكن أن تقدمها الينا»؟...

ولم يكن ريموند من الرجال الذين يفقدون السيطرة على انفسهم في مثل هذه الأزمات ، وذلك على الرغم من الشعور الشعبي تجاه ماكان يجري ، فهو حسب بعض المصادر اللاتينية الصديقة له ، لم يمتلكه الخوف ولا الأسى ، ولم يخش على سلامة زوجته ، ذلك انه كان يعرف مدينته ، ويعرف صلاح الدين ، ويدرك الخدعة ، ويعلم أكثر من سواه طبيعة المنطقة ، لهذا جاء جوابه كما يلي :« لابأس انا سأدلي برأيي ، اذا ماأصغيتم إلي وصدقتموني ، فأنا أعلم علم

اليقين أنه مـــامن أحـــد منكم يرغب في تصـــــديقي ». ورد عليه الملك قائلا :« أخبرنا بما تراه ، وأعلمنا بما علينا عمله ».

واستجاب ريموند فتحدث ثـانية وقـال مـــوجها كلامــــه الى الملك :« أصغ ياسيدي أنت والسادة الحضور الى مـــاسأقوله ، ان ماأراه هو : دع طبرية تذهب ، حتى وإن لم أستطع تـرتيب أمـور عودتها إلي واستردادها من المسلمين ، وحتى في حـــال عجـزي عن تدبير أمر انسحابهم ، إنني اوصيكم بكل صـــدق بـــألا تـذهبوا الى مساعدة المدينة ونجدة المحاصرين بهـــا ، دعوهـــا تـذهب دعوهـــا تسقط ، وهـاأنذا أخبركم لماذا : إن طبرية لي ، وهـي مـن امــلاك زوجتي ، وموضوعة تحت تصرفي ، وما مــن أحــد سـيخسر قـدر خسارتي اذا مافقدناها .

انا لاأتمنى أن يتـــأذى أي منهـــم ، وقـــــد ســــــبق لي أن أنذرتهم ، وأعلمتهم بـــأنهم اذا مـــاوجدوا هجـــوم صـــلاح الدين شديدا ، وكبيرا الى حد انهم لايستطيعون مقاومته ودفعــه ، فـــان عليهم القيام بركوب بعض القوارب والبحث عن ملجأ مـــا في البحيرة وأطرافها حتى نقدم ، عندما تتهيأ الفرصة لانقاذهم ».

انني أعلم علم اليقين ان المسلمين اذا ماأستولوا على طبرية ، لن يحتفظوا بها ، بل سيهدمون أسوارها ثم يدعونها ، ولن يتحـــركوا نحونا لمهاجمة معسكرنا ،واذ حدث واستولوا على القلعـــة وأسروا زوجتي ورجالي واستولوا على ممتلكاتي وهدموا مـــدينتي ، فإنني سأقوم فيما بعد بانقاذهم ، وبإعادة بناء سور المدينة وترميم ماتهدم منها ، وذلك مع أول فرصة تواتيني ، فأنا كنت ومازلت أفضـل ان ارى طبرية تهدم ، وزوجتي تؤسر مع رجـــالها وممتلكاتـــي تســلب وتنهب ، على أن ارى الأرض كلها تذهب ، فـــأنا مـوقن بـــأننا اذا مامضينا لانقاذ طبرية ومن فيها ، فإننا سنخسر الأرض ، وسترى جيشك هذا كله مابين قتيل وأسير ، وهاأنذا مخبرك لماذ ؟.

لايوجد بين منطقتنا هـــذه وطبـــرية مـــــاء ، اللهــــم الا

نبع « كرسون » ؟ وهو نبع صغير لايقوم بـأود الجيش ، وأنا على يقين انك حالما تتحرك مـن هنا ـ اذا مـاقررت الذهـاب ، لانقـاذ المدينة ـ ستجد المسلمين أمامك بانتظارك ، وسيناوشونك بـأنواع القتال طوال النهار ، وسيستدرجونك سواد الليل حتى يضعـوك في منتصف الطريق مابين موقعنا هـذا وطبـرية ، وسـيجبرونك على المعسكرة هناك لأنك لن تستطيع القتال بسبب الحرارة ولأن السـير- جانتية لن يكون لديهم ماء للشرب ، انهم سيموتون عطشا ، واذا ما حاولت القيام بهجوم ، فان المسلمين سيفرون أمامك متراجعين نحو الهضاب حيث لايمكنك المرور بدون السـيرجانتية ، واذ وجـدت ان عليك المعسكرة هناك ، ما الذى سـيشربه رجـالك وتشربـه خيولك؟ هل يبقون بلا ماء؟ أن مثل هذا الحـال سـيكون مميتـا ، ففـي اليوم التالي سيأخذوننا جميعـا بـاليد ، لأن لديهـم الماء والطعـام والراحة ، سنقتل جميعا او نقع في الأسر ، انني لهـذا كله ارى انه مـن الخير لنا ان ندع المدينة تـذهب ، دون أن نخسر كل الأرض ، لأنه مـن المؤكد انك اذا مضـيت الى هناك ، فـالأرض سنخسرها جميعا .

سيدي ، إنك إذا ماأردت حقا دخـول الحـرب ضـد صـلاح الدين ، دعنا نعسكر امام عكا ، حيث سنكون قرب حصوننا ، انني اعلم علم اليقين أن صلاح الدين رجـل متـكبر الى حـد أنه لن يدع المملكة ويغادر أراضيها حتى يحـاربك ، وانه اذا مـاهاجمك امـام عكا ، ولم يواتنا الحظ ـ لاسمح الله ـ فـاننا سـنتراجع الى عكا والى بقية المدن القـريبة ، انمـا اذا نصرنا الرب عليه ، فـاننا سنسحقه قبل ان يتمكن من العـودة الى أراضـيه ، اننا سـنحطمه تحطيما شديدا الى حد انه لن يستطيع ثانية جمع قواته .

وعندما انهى الكونت كلامه ، تمتم مقدم الداوية ثـانية وبشـكل مسـموع قـائلا : إنه يتبـرقع بجلد الذئب ، لكن الكونت لم يعـره اهتمامه ولم يلتفت الى هذه الكلمات ، وتظاهر بعدم السماع ، مـع

انه سمع كل عبارة ، ثم استأنف خطابه للملك قائلا :« سيدي ، اذا لم يقع كل شي كما اخبرتك ، اقطع راسي ».

وجاء في الكامل لابن الأثير ما يؤيد بعض محتويات هذه الوصية ، ويوضح بقية جوانب القضية حيث قال :« فسار - صلاح الدين - حتى خلف طبرية وراء ظهره ، وصعد جبلها ، وتقدم حتى قارب الفرنج ، فلم ير منهم أحدا ، وفارقوا خيامهم ، فنزل وأمر العسكر بالنزول ، فلما جنه الليل ، جعل في مقابل الفرنج من يمنعهم من القتال ، ونزل جريدة ، وقاتلها ونقب بعض أبراجها ، وأخذ المدينة عنوة في ليلة ، ولجأ من بها الى القلعة التي بها ، فامتنعوا بها ، وفيها صاحبتها ومعها اولادها ، فنهب المدينة واحرقها ، فلما سمع الفرنج بنزول صلاح الدين الى طبرية ، وملكه المدينة ، وأخذ ما فيها وأحراق ماتخلف مما لايحمل ، اجتمعوا للمشورة ، فأشار بعضهم بالتقدم الى المسلمين وقتالهم ، ومنعهم عن طبرية ، فقال القمص (ريموند الثالث) : إن طبرية لي ولزوجتي ، وقد فعل صلاح الدين بالمدينة مافعل ، وبقيت القلعة ، وفيها زوجتي ، وقد رضيت ان يأخذ القلعة وزوجتي ومالنا بها ، ويعود ، فوالله لقد رأيت عساكر الاسلام قديما وحديثا ، ومارأيت مثل هذا العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة ، واذا أخذ طبرية لايمكنه المقام بها ، فمتى فارقها وعاد عنها أخذناها ، وان اقام بها لايقدر على المقام بها الا بجميع عساكره ، ولايقدرون على الصبر طول الزمان عن أوطانهم واهليهم ، فيضطر الى تركها ، ونفك أسر من أسر منا ، فقال له برنس أرناط - صاحب الكرك - قد أطلت في التخويف من المسلمين ، ولاشك أنك تريدهم ، والا ماكنت تقول هذا ، واما قولك انهم كثيرون ، فان النار لايضرها كثرة الحطب ، فقال : أنا واحد منكم ، إن تقدمتم تقدمت ، وإن تأخرتم تأخرت ، وسترون مايكون ، فقوي عزمهم على التقدم الى المسلمين ، وقتالهم ، فرحلوا من معسكرهم الذي لزموه ، وقربوا من عساكر الاسلام ، فلما سمع صلاح الدين بذلك ، عاد من طبرية

الى عسكره ، وكان قريبا منه ، وانما كان قصده بمحاصرة طبرية ان يفارق الفرنج مكانهم ، ليتمكن من قتالهم ، وكان المسلمون قد نزلوا على الماء والزمان قيظ شديد الحر ، فوجد الفرنج العطش ، ولم يتمكنوا من الرجوع خوفا من المسلمين ».

ونعود الى الروايات اللاتينية ، ونتابع معها وصفها لمناقشات المجلس الحربي للفرنجة ، فنجدها تقول انه بعدما انهى ريموند كلامه سأل الملك البارونات ماذا يرون فيما قدمه الكونت من مشورة وآراء ، فأجابوه بأن كل ما قاله الكونت صحيح تماما ، واتفقوا على أنه بات عليهم العمل كما قال ، وهنا أبدى الاسبتارية رضاهم وموافقتهم ، وأعلن الملك عن قناعته بذلك الرأي ، وكذلك فعل جميع البارونات ، فيما عدا أرناط مع مقدم الداوية ، لكن رغم هذه المعارضة اتخذ الملك مع جميع البارونات قرارا بالعمل حسب مشورة ريموند .

بعد هذا العرض ماذا يمكن لنا أن نرى في مشورة ريموند ؟ من حيث المبدأ إن كلامه كما نقله المؤرخ اللاتيني قد تنبأ بشكل صحيح وكامل تماما بجميع حوادث اليوم التالي ، كما وقعت ، وهذا لا يدع الشك لدينا بأن الجزء الأكبر والأخير مما نسب الى ريموند حسب الرواية كله مخترع ، قصه الراوي متأخرا بعد المعركة ، ومع هذا فإن قراءة هذه الرواية تترك في النفس انطباعا خاصا ، فهي بما لها وعليها ، تتحدث عن شي قد حصل ، وتروي بشكل غير مباشر أخبار وقائع حطين الحاسمة .

نحن لن نستطيع ـ بشكل مؤكد ـ أبدا معرفة ما حدث من مناقشات في خيمة الملك في ذلك المساء ، فلقد طواها الزمان ، ولن نستطيع أبدا معرفة ما قاله الكونت ريموند ، لكننا نعرف بأن مناقشاته كان لها أثرها الواضح على الفرسان ، الذين دفعتهم أرواحهم المتوقدة ، ساعة سماعهم الأخبار الى المطالبة بالزحف فورا ، فتوقفوا الآن وهدأ جيشانهم ، لهذا نفترض بأن الآراء التي عرضها كانت مصيبة تحوي مشورة جيدة ، الى حد قرار

التربص ، فهو كان بلا شك على معرفة بالمنطقة اكثر من سواه ، وكانت معارفه الحربية ، وقدراته التكتيكية مشهورة ، كما أنه ملك قدرة الاقناع ، بعد عرض الأفكار بشكل واضح ومنطقي ، وفيما يختص بطبرية فإنه كان المسؤول عنها ، ويرجح أنه لم يكن قلقا عليها ، ولوكان لترك فيها منذ البداية حامية قوية ، زد على هذا كله أن ريموند الثالث كان فاهما لاستراتيجية صلاح الدين ، ودون شك قد قدر بأنه إذا مكث الصليبيون في صفورية ، فقد كانت فرصة متوقعة ، بأن صلاح الدين سيضطر أخيرا الى الانسحاب من طبرية ومن معسكره تحت التلال والعودة نحو دمشق ، أو أنه سيقرر الهجوم والاندفاع داخل الأراضي الصليبية .

ونستخلص من مختلف الروايات بأن ريموند كان يعتبر نفسه أنه ما يزال على علاقة طيبة مع المسلمين ، وأنه كان يأمل بالحصول على انسحاب صلاح الدين ، والحيلولة دون القتال ، بعد نوع من المباحثات ، فصحيح أن صلاح الدين كان لديه الماء ، إنما كما يبدو ، كان تحصيل كميات كافية من المؤن تكفي لمدة طويلة أمرا صعبا ، ثم كان صلاح الدين يقود جيشا نصفه من المتطوعة الذين يفقدون الصبر بعد قليل من المرابطة ، والنصف الآخر من أمراء الاقطاع وحكام الأطراف الذين تتملكهم الرغبة الشديدة في العودة الى أراضيهم ، لقد كان صلاح الدين بعيدا عن قواعده ، معسكرا في أرض عدوة ، وكان لا يستطيع المرابطة طويلا ، وطبعا كان من الأفضل للفرنجة المقامرة على أن يتحرك صلاح الدين منسحبا أو يزحف نحوهم ، بدلا من قيادة جيوشهم في الأرض الجرداء الصعبة التضاريس ، لقد أراد ريموند تقليد فنون المسلمين بالقتال بالانسحاب نحو الشاطىء واغراء صلاح الدين ليس فقط بعبور الهضبة ، وإنما بالتغلغل داخل أراضي مملكة القدس ، لقد كان القتال عند طبرية شرك منصوب ، ريموند وحده ملك ــ حسبما توحيه المصادر المختلفة ــ الفهم الاستراتيجي له ، فهل يا ترى ملك ذلك فعلا أم أن المؤرخ اللاتيني سجل وقائع المعركة ونتائج

التحليلات لما حدث ؟ تبقى القضية معلقة بمثابة سر كبير من أسرار التاريخ .

وبعد هذا كله لنفترض أن كل ما قيل بأن ريموند قد أشار به كان صحيحا ، وأن الملك والبارونات وافقوا في البداية على أرائه ، لكن من قال بأن القرارات – في العصور الوسطى – كانت تتخذ في الاجتماعات العامة ، وأن اعلان الحرب لدى الفرنجة وملوكهم خضع لأحكام العقل والمنطق ، وليس للشهوات والمطامع الفردية ، وعليه قد يكون ريموند أشار بالراي الصحيح ، لكن كلمته لم تكن الكلمة المسموعة لتنفذ ، وحزبه لم يكن الحزب الحاكم في القدس ، لقد كان ريموند عدوا للملك غي ولأعوانه خاصة جيرالد مقدم الداوية وارناط صاحب الكرك ، فصراعاته ضد الجماعة الحاكمة في القدس قد أجبرته على الحالف مع صلاح الدين ، وكان الحزب الحاكم لا يكتفي بعدم الثقة به ، بل كان ما يزال – رغم المصالحة – يعتبر بأعين الكثيرين خائننا «يتبرقع بجلد الذئب » لا يجوز مطلقا الوثوق بكلامه ، ولاشك أن جيرالد وأرناط وغيرهما كثير امنوا بهذا ايمانا مطلقا ، وهنا لب القضية الحقيقية فيما حدث ، وأدى الى ما نزل بالفرنجة في حطين ، المشكلة أن الصراعات الشخصية ، والعداوات الفردية التي وجدت بين صفوف قادة الصليبيين الى فترة طويلة ، جعلت الامور تتداخل ، والأحكام تمتزج الى حد غدا فيه من المحال التمييز في عقولهم بين ريموند خصمهم وريموند العسكري المجرب والاستراتيجي الخبير .

وتشير المصادر الغربية الى أن في حوالي منتصف الليل انقضى الاجتماع ، وانصرف البارونات الى خيمهم ظانين بأن المسألة قد تقررت ، وهم على ثقة تامة بأن الجيش لن يتحرك الآن ، وسيبقى تلك الليلة في معسكره حتى يجد جديد فيجري بحثه ، وجلس الملك في سرادقه يروح عن نفسه الى ساعة متأخرة من الليل ، وما كاد يفرغ من ذلك حتى دخل جيرالد مقدم الداوية ، وخاطبه بقوله : « هل تصدق ما قاله هذا الخائن ، وتؤمن بما قدمه من مشورة وأراء ، إنه

عار عليك أصلا أن تستمع اليه ، وأن يقوم بتقديم النصيحة لك ، وإنه أيضا لعار عليك عظيم ، كما هو مهين بالنسبة لك ـ وأنت الذي توجت ملكا منذ زمن غير بعيد ، واستطعت رغم ذلك حشد جيش كبير لم يجتمع مثله لملك قبلك في هذه الأرض ـ أن تتراخى وتتهاون ، وتدع مدينة ، هي على بعد ستة أميال منك ، نفقدها لعدونا ، إن هذه أولى المهام التي ألقيت على عاتقك ، وأول الواجبات التي عهد بها اليك ، منذ جرى تتويجك ، وأعلم جيدا ، قبل أن ترى ، بأن الداوية سيخلعون أقبيتهم البيضاء ، ويبيعونها أو يرهنونها ، مالم ينتقم من المسلمين ما حل بي وبهم من عار واذلال (يشير الى واقعة الناصرة) امض ، وأعلن في الجيش كله ، بأن على كل رجل حمل سلاحه ، والانضمام الى جماعته ، للانضواء تحت لواء الصليب المقدس .

ولم يتجرأ الملك غي على معارضته ، ونفذ كل ما أمره به ، لأنه كان يحبه ويخشاه ، حيث أنه هو الذي نصبه في الملك ، وأعطاه الأموال التي بعث بها ملك انكلترا »

ولم يكن تأثير ضعف الملك غي وعجزه ، على جماعته حاسما بشكل مميت مثلما كان تلك الساعة من بعد منتصف الليل ، فقد كان هو القائد العام ، وكان كل شيء متوقفا على قراره وعليه شخصيا كما عرف جيرالد بشكل واضح ، ولقد تمكن جيرالد ببراعة فظة من جعله يشعر أنه مدان للداوية ولمقدمهم جيرالد ولجميع الذين صنعوا منه ملكا ، ولا شك أن هذه قد كانت نقطة حساسة جدا ، ففي الماضي ، قام جيرالد ، بتنصيبه ملكا على القدس ، رغم أنف جميع البارونات فكيف يمكنه الآن مخالفته ؟ يضاف الى هذا أن مقدم الداوية دغدغ عواطفه واستثار شجاعته وحرضه ، ذلك أن الملك غي رغم كل شيء كان من فرسان الفرنجة ، يحمل الطباع نفسها ، ولم يكن جبانا ، بل مغامرا متهورا ، ومع ذلك عرف جيرالد كيف يجعله العوبة بين يديه ، ولهذا أقدم غي في تلك

الساعة المتأخرة من الليل ، أقدم دون تردد ، على اصدار الأوامر لمن كان حوله بإزالة معسكرهم ، وحمل السلاح للزحف نحو الأمام .

وقضت قوانين الفرنجة وتقاليدهم ، أن مثل هذاالقرار كان بعد صدوره لا يمكن نقضه أو التراجع عنه ، وفي الحال شرع الجيش بالتحرك نحو طبرية ، وباث من المحال تغيير الخطة ، وصار الأمر الآن طبرية أو الكارثة ، ولكم هو مدهش وضع الفرنجة ، أن يرفض ملكهم نصيحة ريموند وهو على انفراد بعد ما أعلن عن قبوله لها قبيل سويعات في مشهد عام ، أن يتخلى عن ذلك كله نتيجة لضغط جيرالد عدو ريموند ، منذ أن حرمه الأخير من زواج موعود « بسيدةالبترون » وذلك قبل ست سنوات مضت ، وذلك حسب تصريح المؤرخ الفرنجي الذي شهد هذه الأحداث ، ولذلك دعاه بـ « الرجل الذي ضاعت الأرض على يديه ».

كانت ساعة اصدار الأوامر أسوا ساعات الليل ، فيها ترتخي الأجساد ، وتهبط المعنويات ، وتكثر الأحلام ، ولهذا يخبرنا المؤرخ الفرنجي بأن الانزعاج بين الفرسان كان كبيرا جدا ، عندما سمعوا بأوامر الزحف ، وأصر بعضهم على معرفة من دفع الى اتخاذ هذا القرارالمفاجي ، وما الذي بعث على تغيير الخطط السالفة ، لكن الملك رفض إخبارهم ، وقرر عدم تقديم أية ايضاحات ، وأصر على ما أصدره من أوامر ، لذلك عبثا حاولوا الضغط عليه لثنيه عن قراره أو التراجع عنه ، فأطاعوه مكرهين والحزن يملأ قلوبهم ، أو حسب عبارة المؤرخ الفرنجي : « أطاعوه لأنهم كانوا رجال صدق وأصالة ، ونفذوا أوامره ، ولربما كان خيرا لهم وللمسيحية لو انهم رفضوا إطاعة أوامره ».

ويستخلص من رواية هذا المؤرخ أن رجال الفرنجة تهيأوا للزحف في ساعات ما قبل الفجر ، وهو ـ كما قلنا ـ وقت تكون شجاعة الرجال فيه في أدنى المستويات انخفاضا ، وانتشر الشعور باليأس ، وتوجس الشر ووقوع الكارثة ، بين صفوفهم ، وترك هذا

الحال أثاره العميقة ليس على مؤرخنا القديم بل حتى على كتاب العصر الحديث في الغرب ، لهذا أسرف وأسرفوا في ايضاح الحالة النفسية لعساكرالفرنجة ، ولا شك أن كميات القصص المروية ، وفي كل منها نبوءة بالكارثة ككل أو شطر ، ما يعكس الأحوال النفسية المتدهورة للصليبيين ، خاصة وأن معظم هذه القصص جرت روايته فيما بعد.

ومفيد لنا أن نسرد وقائع احدى القصص ، ففيها ما يقدم صورة واضحة لحالة الهياج والاضطراب النفسي والهلع الذي ساد بين صفوف الفرنجة : قيل بأن واحدا من مشاة المؤخرة ألقى القبض على امراة مسلمة ، فأعلن أنها كانت ساحرة ، وظفها صلاح الدين وبعث بها لتلقي بسحرها على الجيش الصليبي ، وانتشر الخبر ، وهاج الجيش وماج ، واضطرب الحال ، وفقد الجميع السيطرة على عقولهم ، وجرى ايقاد نار عظيمة لاحراقها ، وقيل بأنها ألقيت في النار فلم تؤثر بها ، وزاد الاضطراب والهياج حتى قيل بأن الرجال والخيول على السواء تأثروا بسحرها ، ولقد أقدم أخيرا أحد الرجالة فاجتث رأسها ببلطة هولندية كانت بيديه ، وتناثر دماغها في كل مكان ، وأصاب دمها الكثيرين ، حتى رفضت الخيول ملامسة الماء طوال النهار والليل قبل أن يتحرك الجيش ، ثم تخلت عن خيالتها في اليوم التالي...

لقد كان الجيش الصليبي مؤلفا من ثلاثة أقسام ، ففي المقدمة سار ريموند ، على أساس رتبته ، وبسبب أن الزحف كان في أراضيه ، ووقف الملك في القلب ومعه رجاله وفرسانه وصليب الصلبوت محمولا من قبل اساقفة عكا واللد ، وبقي في المؤخرة « بالين صاحب ابلين » ومعه فرسان الداوية .

في صباح يوم الجمعة الثالث من تموز بدا زحف القوات الصليبية ، وكان معسكرهم مرصودا من قبل المسلمين ، لذلك نقلت الأخبار سريعا الى صلاح الدين ، الذي ما أن سمع بالأخبار حتى سر سرورا كبيرا ، ذلك أن ما خطط له بدات علامات النجاح المتأمل

له بالظهور ، وكان يشرف على فتح طبرية ، وعلى الرغم من أن رجاله كانوا قد شرعوا في فتح ثغرة في أسوار قلعة طبرية ، وأن القلعة أشرفت على السقوط ، فإنه ترك طبرية ، والتحق على الفور بالجزء الأكبر من جيشه المقيم تحت الشرف الكبير الى الغرب من طبرية ، وترك شحنة صغيرة لتتولى أمر المدينة ومتابعة حصار القلعة ، ووضح الآن أن طبرية لم تكن هدف صلاح الدين الحقيقي ، وعندما بلغه الخبر صرخ قائلا : « جاءنا مانريد ، ونحن أولو بأس شديد ، وإذا صحت كسرتهم فطبرية وجميع الساحل مادونه مانع ، ولا عن فتحه وازع » .

وبمجرد مغادرة الصليبيين للصفورية في طريقهم يريدون طبرية ، بدأت التوقعات المعزوة لريموند ، تظهر صحتها ، والأهم من ذلك أن التكتيك « الفرنجي » (أي نظام فصل أسلحة الجيش الصليبي عن بعضها) ظهر بوضوح لانظير له ، وطبقه صلاح الدين بشكل مثالي ، إنما بصعوبات كبيرة وأعمال معقدة جدا ، المهم أنه نجح كما سنرى في فصل سلاح الفرسان عن سلاح المشاة ، وأنزل ضرباته المدمرة بكل منهما على حدة .

فمع تقدم الجيش الصليبي ببطء ، أخذت كتائب من القوات المسلمة ، خاصة من الخيالة النبالة تناوشه من جميع الأطراف ، وتتحرك بتحركه ، واستمر هذا طيلة الصباح ، ولم تلبث الشمس أن ارتفعت في قبة السماء ، وهنا ارتفع الحر ، وازداد العطش ، وعظم ، ولم يكن هناك ماء ، وواضح أن التحرك المفاجيء للجيش ، وصدور الأوامر إليه بعيد منتصف الليل ، وتخيل قادة الفرنجة أنهم سيكونون في طبرية مع إشراقة الصباح ، كل هذا جعل أفراد الجيش الصليبي لايحملون معهم الماء ولاحتى المؤن ، ولعله أثناء معسكرته في صفورية لم يكن لديه أوعية لحفظ الماء ونقله ، ذلك أن معركة حطين كانت بالفعل معركة الماء .

وعلى هذا لم يكد الصليبيون يسيرون قليلا حتى أخذت نبال المسلمين تعقرهم والعطش يعضهم ، وساروا مصابرين في ظل هذه

الحالة الصعبة حتى وصلوا أخيرا إلى مكان عرف باسم « لوبية » وهي واقعة في حوالي منتصف المسافة إلى طبرية ، وكان الوقت آنئذ منتصف النهار ، وهنا ازداد ضغط كتائب صلاح الدين عليهم من كل ناحية ، فقد بدأ تنفيذ مرحلة جديدة حاسمة من الخطة ، وازداد العطش الحارق في تلك الساعة ، واصبح الحر لايحتمل ، ولنتذكر مجددا هنا بعض الحقائق :

لقد غطى الحديد جسد كل فارس ومطيته ، كما أن اجساد الرجالة كانت اجزاء كبيرة منها مغطاة بوسائل واقية من اللبد أو الجلود أو المعادن ، وسبب هذا ضيقا شديدا لكل واحد من عساكر الصليبيين ، ليس لأن وزن الدروع كان كبيرا ، بل لأن هذه الأثواب على مختلف أنواعها كانت تحد من حرية حركة الانسان ، وليتصور احدنا نفسه موضوعا داخل قالب معدني أو غير معدني ، ولوقت طويل ، وسط حرارة شديدة جدا ، مما يزيد الضيق ضيقا وينهك اقوى الأجسام ، وفوق هذا كله واهم ، مشكلة التعرق ، فما ارتداه الفرنجي حال بين جسده وبين التعرق ، وسد مسام الجلد ، لهذا قامت تقاليد أهالي بلاد الشام على ارتداء الثياب الرقيقة البيضاء الفضفاضة في موسم الصيف .

وسلف بنا أن ذكرنا أن فرسان الداوية ساروا في مؤخرة الجيش ، وفي منطقة لوبية شدد المسلمون الضغط على الداوية ، وكانت ضرباتهم موجعة إلى درجة دفعت الملك غي إلى إصدار أوامره بنصب الخيم وإقامة المعسكر ، والمسألة الآن ليست في حقيقة أن الجيش الصليبي بات الآن على مسافة قصيرة من الماء ، فالنقاش هنا لايدور حول قرار الملك إقامة المعسكر ، فالضغط لاشك كان شديدا من كافة الجوانب ، لكن القادة الكبار لايتخذون قرارات الانتحار لأنفسهم ولجيوشهم بعد سويعات من الحرب ، فمن الوجهة الاستراتيجية هناك إجماع على أن إقامة المعسكر في ذلك المكان كان غلطة مميتة ، وأنه كان على الصليبيين الصبر والاندفاع بأي ثمن نحو الماء ، وهنا نلاحظ في الكتابات الغربية أن كل فريق من الجيش

الصليبي وجه اللوم للفريق الآخر حول اتخاذ هذا القـرار ، وبصرف النظر عن ذلك ، إن إقامة المعسكر في لوبية وضع الجيش الصـليبي داخل طوق للحصار فرضه المسلمون ، ولم يعـد بإمـكان الفـرنجة العودة إلى صفورية ، وبات التقدم عمـلا انتحـاريا ، لكنه المخـرج الوحيد ، ذلك أن البقـاء داخـل المعسـكر ـ وليس هناك أمـل لابالنجدات ولابسواها ـ كان يعني الموت البطيء جوعا وعطشا أو الاستسلام الجماعي .

ويختلف المؤرخون اللاتين حول تحـديد الشـخص المسـؤول عن إعطاء أوامر التوقف وإقامة المعسكر ، ولاشك أن مثـل هـذا أمـر طبيعي في ظل تلك الظروف الصعبة ، فمع ازدياد صعوبة الزحف لابد أن الرجال الذين رووا أخبار الأحـداث ، قـد تـداخلت معلومـاتهم واضطربت ، بسبب سوء الأحوال ، يضاف إلى ذلك أن كل واحد من الرواة كان كما هو متـوقع في طـرف مـن أطـراف الجيش ، ورأى الأمور من زاوية خاصة ، وبصرف النظر عن هذا كله ، فالذي يأتـي بالدرجة الأولى من الأهمية بالنسبة لنا حقيقـة مفـادها أن قـرارا بالتوقف قد صدر بصرف النظر عمن أصدره أو أشار به ، والطريف هنا هو أن بعض كتاب الغرب اتهم مجددا ريموند بـأنه قـدم للملك مشورة فاسدة سببت اتخاذ هذا القرار ، ولنقـم بـالبحث في هـذه المسألة ، ففي ذلك فائدة كبيرة في اطـلاعنا على أحـوال الفـرنجة ، وبعض الدوافع للتوقف والأهداف .

ويذكر صاحب تكملة تاريخ وليم الصوري وسواه أنه عندما وصل الجيش إلى نقطة قائمة في منتصف الطريق بين صفورية وطبـرية ، حسب الوصف السالف ، سأل الملك غي كونت طرابلس أن يقـدم مشورته حول الوضع ، فاستجاب بـأن أشـار عليه بـالتوقف حيث هو ، ويقيم معسكره ، وتجمع جميع المصادر الغـربية على وصـف هذه المشورة بالفساد والخيانة ، لكن مصدرا واحدا بينها يوحي بأن التوقف كان بقصد لم شتات القوات وجمعها بقصـد القيام بهجـوم عام ، وأن مثل هذا الهجوم لو تم لحقق النصر على المسلمين .

قد يكون هذا صحيحا ، إنما من الملاحظ في أخبار الكثير من المعارك التي حدثت في العصور الوسطى أن إصدار بعض الأوامر في الساعات الحرجة ، ثم تبديل أماكن بعض القطعات أو تراجع بعضها أو ما يشابه ، كان يسبب الفوضى ويقود إلى الهزيمة ، على كل حال يقدم صاحب هذه الرواية المزيد من التفاصيل ، ويذكر بأن ريموند أشار على الملك بالتحول عن الطريق التي كان يسير عليها ، واخذ طريق آخر ، فقد أصبح الوقت متأخرا للوصول إلى طبرية ، بسبب المناوشات والهجمات المستمرة لكتائب الاسلام ، ثم لم يكن هناك اي ماء في لوبية ، واخبره أنه وراء التلال إلى اليسار هناك قرية اسمها حطين فيها عدد كبير من الينابيع ، فهناك من الممكن المعسكرة لمدة ليلة ، ومن ثم يستأنف الزحف في اليوم التالي إلى طبرية براحة ودونما عناء ، ووافق الملك على هذا الاقتراح ، لكن حسب رأي المؤرخ كانت تلك المشورة فاسدة ، فلقد كان لدى الصليبيين آنذاك ما يكفي من القوة لهزيمة المسلمين ، أو على الأقل شق طريقهم نحو طبرية حيث الماء .

ويتابع عرضه بأن الملك غير طريقه ، وانحرف نحو التلال القائمة الى جانبه ، انما حدث اثناء تغيير الاتجاه أن فقد الجيش نظامه وتماسكه ، مما شجع المسلمين وجعلهم يزحفون من جميع الجهات لتمزيقه قبل أن يتمكن من الوصول إلى الماء ، وقد توقف الصليبيون على هضبة في مكان عرف باسم قرن حطين ، وهنا توجه الملك غي بالسؤال ثانية الى ريموند: ماذا عليه أن يعمل ؟وأجابه ريموند هذه المرة ، بأنه لو سمع نصيحته منذ البداية ، لما خسر نهاره ، لكن الآن تأخرت الأمور ، ولم يبق أمامه إلا ـ كما قال ـ أن ينصب معسكره هناك على قمة الهضبة ، وهذا مافعله غي .

من الواضح أن المكان الموصوف في هذه الرواية هو الأرض القريبة من قرني حطين ، حيث ـ كما قال هذا المؤرخ نفسه ـ قامت المعركة في اليوم التالي وأن ريموند قد حرض الملك على اجتياز الممر الواقع إلى الغرب ـ كما سبق وصفه ـ إلى

حطين والماء ، وما يعنينا هنا هـو تغيير الملك لاتجـاهه وتخليه عن الطريق المباشر إلى طبرية ، وحيث أن ريموند كان على رأس مقدمة الجيش يبدو أنه اشار بتغيير الاتجاه ، ونفذ فوصل إلى قرب الممـر الى الماء ، لكن الجزء الأساسي من عساكر الجيش مع قوات المؤخرة كانوا بعيدين في الخلف ، ولعل عملية الانحراف إلى اليسـار او إلى الشمال تمت في لوبية ، وأن الجيش والملك تعـذر عليهمـا اللحـاق بريموند ، فصـدر الأمـر بـالمعسكرة هناك في لوبية ومنطقتهـا لأن الجيش كان كبيرا ويحتاج إلى رقعة واسعة من الارض ، ويبـدو انه بعدما صدرت الأوامر بالمعسكرة تراجع ريموند مع المقدمة او جـرى استدعاءه ، وعلى هذا نجد أن ما ذكره هذا المؤرخ من ان المعسـكرة جرت على قرن حطين ، ليس صـحيحا ، يضـاف إلى انـه لاتـوجد روايات أخرى تشير إلى ذلك ، ثم إن هـذا الخبـر لايتمـاشى مـع مجريات اليوم التالي .

وفي رحلة لمؤلف مجهول (جرى نشرها في لندن سـنة ١٨٧٥ م ، وتعرف عادة باسم ليبلوس وصف فيهـا صـاحبها الأراضي المقـدسة) رواية عن معـركة حـطين ، لعلهـا نقلت عن شـاهد عيان حضر الحوادث وشارك بها ، وكان في المقدمة مع ريموند ، كما انه كان من المؤيدين له والمدافعين عنه ، وتتشابه هذه الرواية من بعض الجوانب مع رواية تكملة تاريخ وليم الصوري ، إنما مع فـارق بـالتفاصيل ، فهي مختصرة ، ورواية التكملة واسعة ، وقد جاء فيهـا : « عندمـا وصل الجيش لوبية ، أشار الكونت على الملك أن يسرع الخطى فوق مكان صخري ضيق طوله قرابة ميل واحد ، حتى يتمكن من الوصول إلى بحيرة طبرية والماء ، وأخبـره انه إذا لم يفعـل ذلك ، سـيموت وجيشه عطشا » .

ويبدو أن الممر المقصود هنا هو الموجود إلى غربي قرني حطين ، الذي رجحنا وصول ريموند على رأس المقدمة إليه ، والجدير بالذكر ان صاحب هـذه الرواية لايوجـه اللوم إلى ريمـوند لتقـديمه رأيا فاسدا ، بل يخالف الروايات الاخرى فيوضـح بـأن الملك حـاول في

البداية اللحاق بالكونت ريموند ، لكنه عندما رأى حركة الجيش البطيئة والفوضى الناجمة عن تغيير الاتجاه ، ثم ما نزل بالداوية في المؤخرة ، الذين ضغط عليهم بشدة متناهية ، حتى أنهم باتوا عاجزين عن متابعة القتال والحركة ، عندها أمر بالتوقف ، وبنصب الخيم ، وأن ريموند عندما شاهد ذلك صرخ : « واحسرتاه ، واحسرتاه ، ياإلهي ، انتهت الحرب ، لقد خانونا ، ودمرت الديار » ،ومعنى هذا ان ريموند كان ضد التوقف في لوبية .

ومهما يكن اسم الرجل المسؤول ، يستخلص من جملة ما جرى عرضه أن جيش الفرنجة زحف من صفورية ، يريد طبرية عبر الطريق المباشر ، فاعترضه المسلمون وأحاطوا به ، ووجهوا إليه الضربات المميتة ، ولم يكن مع الفرنجة ماء ولا مؤن كافية ، وكان اليوم شديد الحرارة ، وعند الوصول إلى منتصف الطريق ، حيث حمل المكان عموما اسم « لوبية » تقرر تغيير الاتجاه نحو اليسار نحو قرية حطين حيث بعض الماء ، مع ممر يمكن النفاذ منه إلى طبرية ، وأدى قرار تغيير الاتجاه إلى خلل شديد في نظام الجيش الزاحف ، وهنا ازدادت ضراوة هجمات المسلمين ، وبات من المحال متابعة التحرك ولم يكن هناك مجال للهزيمة ، لذلك أصدر الملك الأمر بالتوقف والعسكرة .

ومن المرجح أن تكملة تاريخ الصوري كتبت من قبل أرنول جون سيد بالين أوف ابلين ، وهو رجل كان موجودا في المؤخرة ، ورغم التفاصيل التي قدمها فإن معلوماته عن مقدمة الجيش ربما هي مغلوطة ، يرجح عليها الرواية التي أوردها صاحب ليبلوس ، ولايهمنا هنا من يوجه إليه اللوم حول قرار التوقف ، بقدر ما يهمنا الحكم على هذا الاجراء ، ثم التنسيق بين مختلف الروايات والافادة منها جميعها إلى أبعد الحدود .

المهم الان أن قرارا بالتوقف جرى اتخاذه وتنفيذه ، وبات الآن على اللاتين مواجهة ليلة ليلاء ، وهم تحت السلاح ، دونما أدنى أمل بتحصيل الماء لاطفاء عطشهم القاتل ، وكانوا مطوقين تماما من قبل

المسلمين ، الذين بددوا محاولتهم الأولى والوحيدة للوصول إلى الأراضي المنخفضة ، وبات أن يجربوا ثانية ، أمرا لايمكن مجرد التفكير به ، ففكا الفخ اغلقا بإحكام حولهم .

وإذا نظرنا الآن إلى الوراء ، كما فعل كتاب الروايات الغربية ، لاهتمامنا بما جرى داخل المعسكر الصليبي في تلك الليلة الليلاء واخذين بعين الاعتبار رعبها وشدتها مع ما حدث في اليوم ، نجد من السهل الاقدام مباشرة على ادانة قرار التوقف لتمضية الليل في تلك الهضبة الجافة ، والماء على مسافة قصيرة إلى الشمال عبر الهضبة ، لقد صدر قرار الادانة بعد التوقف وتفحص الموقف ، ولم تكن هناك معارضة له ساعة صدوره ، بل لربما يمكن القول بأن قرار التوقف صدر لتقرير أمر واقع ، فقسم كبير جدا من الجيش كان قد توقف عن الحركة ولم يكن أمامه فعل غير ذلك ، واضطر أفراده إلى نصب الخيم للاستراحة وللوقاية من حر الشمس ، ويبحث المؤرخ في أيامنا فيما حدث ، ولايهمه كثيرا ما يتمناه بعضهم لو أنه حدث أو لم يحدث فلا مكان لعبارة « لو» في التاريخ ، وللانصاف نستخلص من مختلف الروايات بأن جهودا مضنية وجدية بذلت للوصول إلى الماء ، وأن مقاومة الصليبيين استمرت إلى النهاية ، ولم يحدث انهيار في العزائم والقوى ، وهذا بحد ذاته هام جدا ، وفيه دلالة على أن النصر الذي ناله صلاح الدين في حطين ، كان باهظ الثمن تم بعد جهود غير محدودة ، وهنا تظهر عظمته ودوره الحاسم ، كما أن الذي يهزم جيشا من الشجعان ليس كمن يهزم الجبناء .

لقد كانت وقائع اليوم الاول للزحف رهيبة ، وبلغ الانهاك الجسدي عند الصليبيين حدا عاليا ، وكانت النهاية محتومة ولايمكن الحيلولة دون تحطيم المؤسسة العسكرية اللاتينية ، هنا انتصرت العقيدة القتالية للمسلمين بعد سلسلة من الهزائم السالفة ، انتصرت لأن تطبيقها جرى بشكل نموذجي .

لقد زحف الصليبيون من صفورية ، يشكلون جيشا عملاقا ، تخيلوا أنه لن يقهر ، وأن ما من قوة على وجه الارض يمكن أن

تتصدى له وتعترض سبيله ، سار قادته على الطريق المباشر نحو طبرية ، وهم يخيل إليهم الوصول إليها في سويعات ، لهذا لم يفكروا باصطحاب الماء والمؤن الكافية ، ولكن فاتهم أن الشجاعة بلا عقل حماقة ، وأن العقل قادر على قهر جميع القوى ، ساروا عبر أرض لم يقع اختيارهم عليها ، بل فرض الأمر عليهم فرضا ، ولهذا ما أن زحفوا قليلا حتى وجدوا الأمر صعبا جدا ، فالحر والعطش ، والذشاب والنار ، والسيوف ، وأعمال الانقضاض الجريئة ، بدت أعظم من قواهم ، ووضح بعد قليل من الوقت انهم لن يتمكنوا من تجاوزها ، وغرقوا في بحر من الفوضى والتعب ، صحيح أنهم صاروا على مشارف طبرية ، لكنهم وجدوا الجسم الاساسي من جيش المسلمين واقفا بانتظارهم يسد جميع الممرات ، فتبعوا هنا راي ريموند أو سواه فتخلوا عن الطريق المباشر ، وقرروا الانعطاف نحو اقرب النقاط التي فيها ماء ، اي إلى حطين ، التي جثمت هناك إلى اليسار منهم في أعلى الهضبة ، انعطفوا وكلهم أمل بالخلاص ، ولم يدر بخلدهم أن صلاح الدين ترك هذا الممر ، يبدو وكأنه مفتوح ، فنلك كان مرحلة تنفيذية جديدة في الخطة ، وشرك جديد منصوب ، انعطفوا فدبت الفوضى بين صفوفهم ، ووقف المسلمون مجددا حولهم وأمامهم في الطريق ثانية ، وصار الوضع الآن إما الاشتباك في معركة عامة أو الاستراحة هناك حتى تنقضي الليلة ، والسؤال الآن : هل كان بإمكان الفرنجة الدخول في معركة التحامية بعد عناء ذلك النهار ، صحيح أن ريموند قد يكون قد توصل إلى الممر في الأعالي ، لكن من يمنع من الافتراض ـ استنادا لوقائع اليوم التالي ـ أن الطريق اخلي أمامه ، وأن صلاح الدين كان يريد قطعة عن جسم الجيش الصليبي لمعرفته بقدراته القتالية وعظيم خبرته بالتكتيك ، وشجاعته .

لقد حدث التوقف ، وكانت ليلة لوبية رهيبة ، لكن النهار الذي تلاها كان اكثر رهبة ، لم يلمس الصليبيون في تلك الليلة ولا خيولهم الماء ، بينما كان المسلمون من حولهم في راحة وتمكن ، حيث كانت قرب وروايا الماء تنقل إليهم على ظهور الجمال من البحيرة

باستمرار ، وتبعا لبعض الرواة أمر صلاح الدين بصب بعض الماء على الأرض على مرأى ومسمع من الصليبيين ، ليزيد في عذابهم ، وأحاط المسلمون بالصليبيين من كافة الجهات ، وكانوا قريبين منهم إلى درجة أن سنورا لم يكن بمقدوره النجاة من داخل المعسكر الصليبي ، ولم تتوقف الهجمات واطلاق الذشاب والمواد المحرقة ، واصغى الصليبيون طوال الليل إلى أصوات المسلمين تنادي : الله اكبر ، لا إله إلا الله ، ولذلك ـ حسب قول المؤرخ اللاتيني ـ لم ينالوا إلا قليلا من الراحة ، وفي ظلمة الليل غرقت امالهم كلها ، وزالت معها شجاعتهم ، أو لنقل ما بقي لديهم من شجاعة .

وكما قلنا اختلف حال المسلمين عنهم تماما ، فقد كانوا في غاية السرور ، يهللون ويسبحون ويتوجهون بالشكر إلى رب العالمين ، لقد كانوا حتى الآن يخشون الصليبيين ويهابون اللقاء بهم ، لكن في هذه الساعة ، يقودهم صلاح الدين ، عندما رأوهم داخل الشرك الذي نصبوه لهم ، قويت قلوبهم ، وازدادت ثقتهم بأنفسهم ، وحقا صنع المؤرخ الاسلامي العماد الكاتب حين وصف تلك الليلة وأحوال الفريقين بقوله : « وحجز بينهم وبين الماء ، واليوم قيظ ، وحجز الليل بين الفريقين ، وحجرت الخيل على الطريقين ، وهيئت دركات النيران ، وهنئت درجات الجنان ، وانتظر مالك ، واستبشر رضوان فهي ـ ليلة القدر خير من الف شهر تنزل الملائكة والروح ـ وفي سحرها نشر الظفر يفوح ، وفي صباحها الفتوح ، فما أبهجنا بتلك الليلة الفاخرة ، فقد كنا ممن قال الله تعالى فيهم : ـ فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الاخرة ـ وبتنا والجنة معروضة ، والسنة مفروضة ، والكوثر واقفة سقاته ، والخلد قاطفة جناته ، والسلسبيل واضح سبيله ، والاقبال ظاهر قبيلة ، والظهور قائم دليله ، والله ناصر الاسلام ومديله » .

ولقد روي بأن صلاح الدين سهر ليلته بطولها ، وهو يشرف على ترتيبات المعركة لليوم التالي ، فقام بتوزيع جند المقدمة والطلائع لكل كتيبة ، وعين الرماة ، وزودهم بالسهام ، وكان ما فرقه من الذشاب

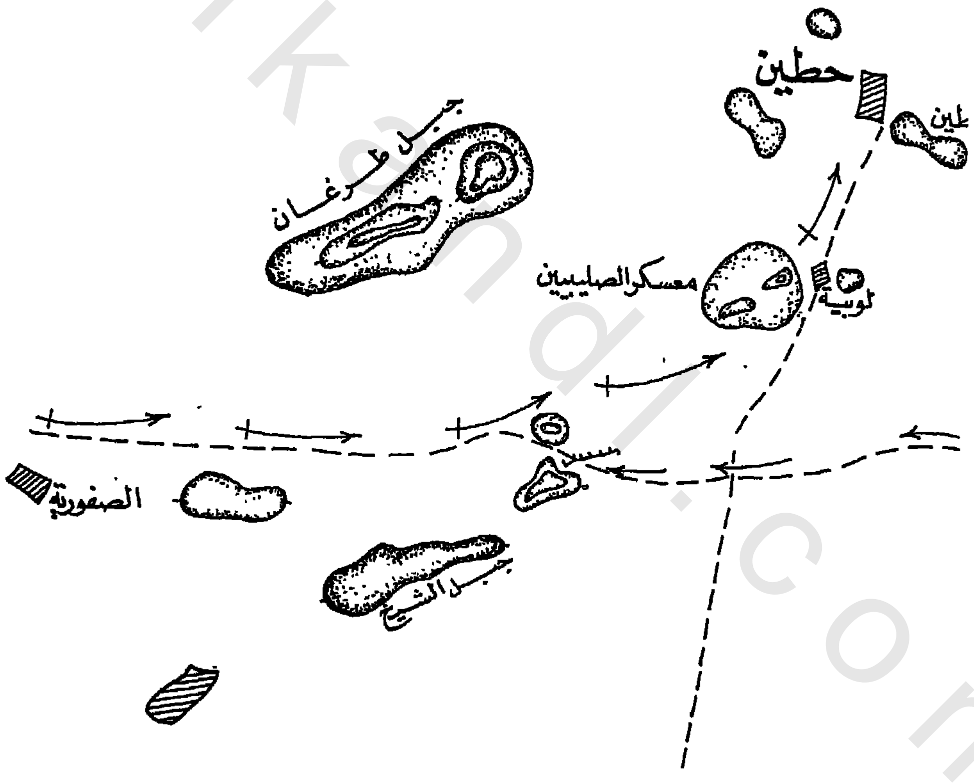

obeikandl.com

بحيرة طبريا
طبريا

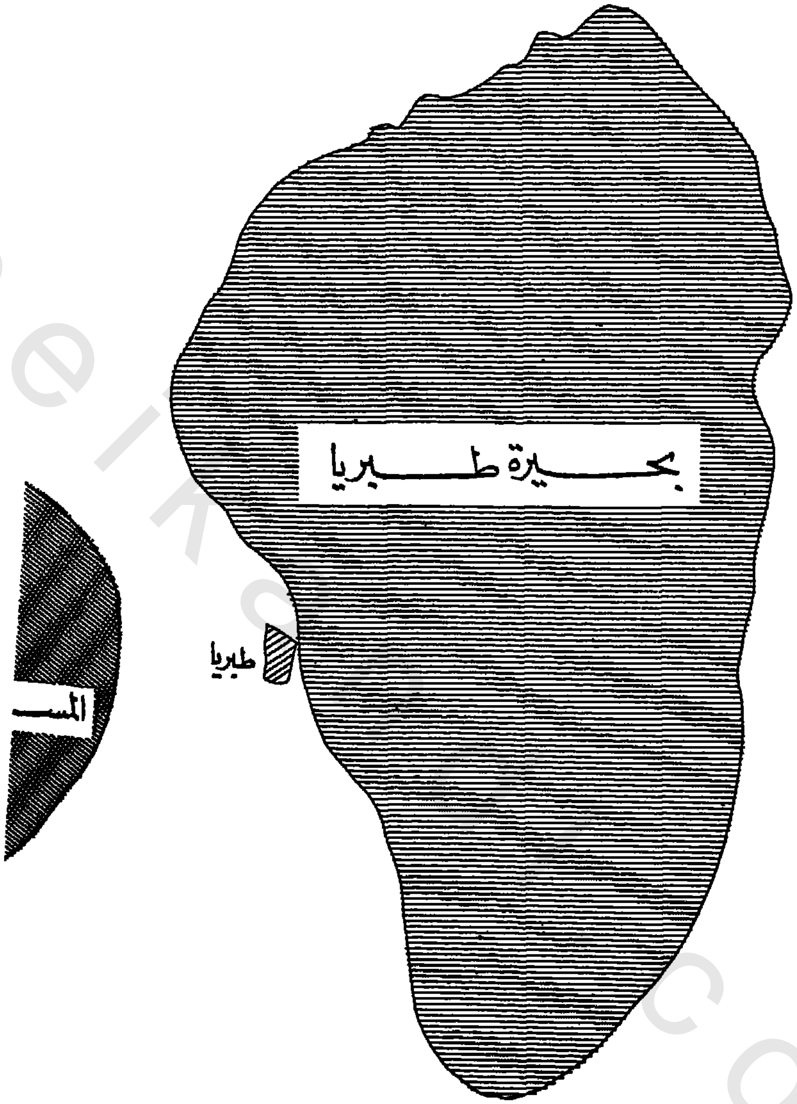
بحيرة طبريا
طبريا
المسـ

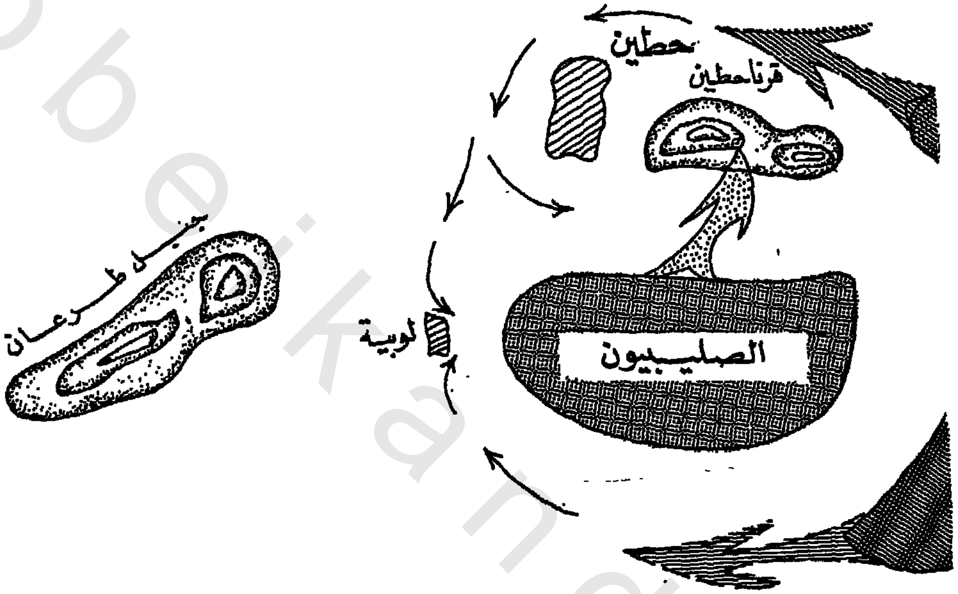

obeikandl.com

أربعمائة حمل ، وأوقف « سبعين جمازة في حومة الوغى ، يأخذ منها من خلت جعابه ، وفرغ نشابه » ، وأعد الجند أسلحتهم ، وصلوا لله وتوجهوا إليه بالدعاء والحمد ، وكلهم أمل وثقة بالفرج ، واستنزلوا النصر من عند الله ورجوا عونه وإعزاز دينه».

وفي صباح يوم السبت الرابع من تموز ، كان الفريقان جاهزان من أجل الصراع النهائي ، ولا شك أن كل منهما أدرك أن مستقبل المملكة اللاتينية والوجود الصليبي في المشرق متوقف على نتيجة الصراع ، ونعود لنذكر أنه من حيث التعداد والقدرة القتالية كان الجيشان ما يزالان متعادلين تقريبا ، لكن بينما كان المسلمون قد نالوا قسطا من الراحة ، وكانوا واثقين ـ دون غرور ـ بأنفسهم بدرجة كبيرة لم يعرفوها من قبل ، كان الصليبيون طوال يوم وليلة بلا ماء ، لم ينل رجالهم ولا الخيول راحة كافية مما عانوه في اليوم السابق ، ولاشك أن هذا عامل كان له فعاليته في المعركة .

لقد كان سلاح الفرسان الصليبي مايزال على حاله من القوة والقدرة على الخرق ، ويبدو أن خطة عمل الفرنجة قامت على الانقضاض ثانية من أجل الوصول إلى الممر إلى الشمال من القرنين ، وللوصول إلى الماء مهما كان الثمن ، وكانت المنطقة وعرة لامجال فسيح فيها لعمل الفرسان الثقال وحملتهم ، وأدرك صلاح الدين هذا ، وهنا ظهرت عبقريته مجددا ، وكان ريموند الثالث كما سبق التبيان في المقدمة ، ومعه أبناء زوجته الاربعة وريموند أمير انطاكية وفرسانه ، ومن جديد استخدم المسلمون التكتيك الفرثي المعتاد ، وأرادوا استدراج الفرسان إلى ما ظنوه « مجالا رحبا للحملة » وعزلهم عن الرجالة ، وكان صلاح الدين يرغب في تاخير العمل حتى تصبح الشمس في كبد السماء ، على أساس أن الحرارة كانت أكثر الأسلحة تأثيرا ضد أعدائه الصليبيين ، وفتحت قوات صلاح الدين الطريق قليلا ، وأفسحت المرور به ، إنما دون أن تكون لديها الرغبة في تلك الساعة بالسماح لمقدمة الفرنجة بالوصول إلى أهدافها أو النجاة ، ونتيجة لهذا وصل ريموند إلى الممر ، لكنه وجد

المسلمين هناك سدوا المنافذ كلها أمامه ، وحاول أن يتخطاهم ، ويفتح ثغرة أو منفذا بين صفوفهم فحبطت أعماله ، فقد كان المسلمون جاهزين لاطلاق رماياتهم الكثيفة ، التي مالبثت أن برهنت أنها مميتة .

وانحرفت مقدمة ريموند قليلا نحو السهل القائم إلى جنوب قرني حطين ، وتبعها بقية الفرنجة ، وهناك التحمت القوتان الرئيسيتان من الجيشين ، وذلك من حوالي الساعة التاسعة صباحا ، ولقد كان ترتيب الجيش الصليبي ـ بما فيه قوات ريموند ـ مختلفا عما كان عليه الحال في اليوم السابق ، فقد أوكل .غي أمر ترتيب الصفوف للمعركة إلى أخيه أما لرك ، الذي شغل وظيفة المراقب العام للملكة ، وأوكلت قيادة المؤخرة إلى بالين صاحب ابلين ، كما كان في السابق ، وكان معه بعض الأمراء منهم رينالد أمير صيدا ، لكن لم يكن معه الداوية كما كان الحال في اليوم السابق .

وجاء تنظيم القسم الأساسي من الجيش الصليبي حسب المبادىء العامة التي جرى تبيانها في مطلع هذا البحث ، ولحسن الحظ ، لدينا وصف وثائقي مفصل لذلك ، قدمه أحد الرواة الحضور جاء فيه :« بعد ما جرى تقسيم الجيش إلى وحدات وصفوف قتالية صدرت الأوامر إلى المشاة بالقيام بمهام حماية الجيش بوساطة الرمايات ، وذلك بغية تمكين الفرسان من القيام بمواجهة العدو بسهولة ، وعليه تتم حماية الفرسان من رمايات العدو ، بواسطة المشاة ، بينما يتولى الفرسان حراسة المشاة وحمايتهم برماحهم ، ويمنعون العدو من الانقضاض عليهم ، ويغدو بهذه الطريقة كل فريق أمنا من خلال التعاون مع الفريق الاخر » .

إنما كيف اصطف السلاحان ، وأين كان موضع كل منهما ؟ هذا ما لم تذكره المصادر ، ويمكن لنا أن نتصور أن ذلك كان : بأن تم توزيع المشاة المسلحين بالقسي العقارة والفؤوس في الأمام وعلى الجناحين ، تمهيدا لهجوم الفرسان الثقال ، وعندما حان وقت انقضاض الفرسان ، أفسح المشاة السبيل لهم في الأمام ، ثم

مالبثوا أن تجمعوا لحماية المؤخرة والجناحين ، هذا ما نستخلصه من مختلف الروايات ، لكن مهما كانت صيغة التشكيلات ، من المهم لنا أن نلاحظ الحاح الكتاب ، واجماعهم على ايضاح مسألة اعتماد الفرسان على الحماية المقدمة إليهم من الرجالة .

وتمركز في قلب هذا القطاع الأساسي من الجيش الصليبي ، الملك غي مع فرسانه المختارين ، وكان الى جانبه صليب الصلبوت يحمله أسقفان ، وكان هذا الصليب هو الينبوع المتبقي لدى الصليبيين ليبعث فيهم الشجاعة والصبر حتى يتمكنوا من خوض غمار ذاك اليوم الحاسم ، وكان بين هؤلاء الذين وقفوا إلى جانب الملك ، الداوية والاسبتارية الذين كانوا خيرة فرسان الفرنجة ، ولقد عهد الى هؤلاء جميعا بالقيام بالهجوم الأول ضد المسلمين .

وما أن تم الالتحام حتى ضغط الداوية بقيادة مقدمهم جيرالد على المسلمين ضغطا شديدا ، فقتلوا عددا منهم ، وأجبروا قسما منهم على التراجع ، وكان ما بذله هؤلاء الفرسان من جهود كبيرا ومضنيا ، لكن تراجع المسلمين أمامهم لم يكن فرارا ، بل عملا تكتيكيا مرسوما ، لذلك حبطت جهود الداوية ، وكانت بلا مردود يذكر ، وتبددت معالم الخطة الصليبية التي جرت حسب العادة ، لاحسب الحاجة والواقع ، فهجوم الفرسان كان يعوزه الدعم والحماية ، وكان من الممكن للمشاة في السهول تقديم مثل هذا المطلب ، لكن في ظروف حطين حيث المناخ والتضاريس ونشاب المسلمين عجز المشاة عن الاحتفاظ بتنظيمهم الأساسي في مرافقة الفرسان ، وأدى إلى عزل فرسان الداوية والاسبتارية وتمزيقهم إربا إربا ، وحدث هذا كله كما يلي :

« عوضا عن أن يبقى المشاة محتفظين بتشكيلاتهم إلى جانب الفرسان ، وذلك عندما زحف المسلمون نحوهم ، تكتلوا في جمع واحد ، واندفعوا إلى جانب أحد التلال(وكان بلا شك واحدا من قرني حطين) وأرسل الملك والأساقفة خلفهم ودعوهم للعودة لحماية صليب الصلبوت ـ الأثر الوحيد المتبقي من حادثة

الصلب ــ ولحماية جيش الرب ، لكنهم اجابوا بالرفض ، وقالوا :لانستطيع القدوم ، لأن العطش أنهك قوانا ، وأعدمنا القدرة على القتال ، ومرة ثانية بعث يأمرهم بالعودة فرفضوا ، وهكذا تركت خيول الفرسان بلا اية حماية .

ووجد في الوقت نفسه الداوية والاسبتارية والتركبلي على مجنبتهم ، انهم ما عاد بإمكانهم ايقاف زحف المسلمين الذين تقدموا بتشكيلة غطوا فيها كل الجوانب ، واستمروا في إمطار خصومهم بالنشاب ، وبعدما تقدموا لمسافة قصيرة استغاثوا بالملك ، وطلبوا منه المساعدة ، وقالوا بأنهم لم يعد بإمكانهم الصمود وتحمل اعباء القتال العنيف ، لكن عندما رأى الملك والذين حوله بأن المشاة رفضوا رفضا قاطعا العودة ، وأنه بدون مساعدتهم ، هم انفسهم ليس بإمكانهم الصمود اكثر في وجه نشاب المسلمين ، عندها أمر الملك مجددا بنصب الخيم ، من أجل حماية صليب الصلبوت ، وعلى أمل اتخاذ موقف دفاعي في وجه هجمات المسلمين ، فالملك بلا شك قد أمل بأن الخيم ستكون مكانا لتجمع القوات المبعثرة ، وتعوض عن خسارة المشاة ، لكن ما حدث مجددا هو أن المقاتلين تراجعوا بشكل فوضوي ، وتجمعوا حول الصليب ، وتركوا فرسان الداوية والاسبتارية لوحدهم يعانون من الخسائر الجسيمة » .

وهكذا حلت الفوضى بين الصليبيين وتحكمت بصفوفهم منذ البداية ، بسبب عزل المشاة عن الفرسان ، ونتيجة لهذا أخفقت خطة الفرنجة التي رسموها باحكام ، ونجحت خطة المسلمين ، وحدث فصل الاسلحة عن بعضها بعضا ، وصار فرسان اللاتين الدارعين ومطاياهم بلا حماية من نشاب وسيوف وحراب المسلمين الذين ضغطوا عليهم من كافة الجهات .

لقد كان تكتيك المسلمين رائعا وأعمالهم القتالية مدهشة ، تراهم ساعة في موقف الدفاع ، وساعة أخرى في موقف الهجوم المتحرك ، وظل كونت طرابلس في المقدمة ، وعندما رأى ما حل بالملك والداوية والاسبتارية ، وشاهد تداخل قوات الجيش والفوضى الكبيرة التي

سادت بين صفوفه ، أدرك ومن معه أن لافائدة مــن التــراجع نحــو مكان صليب الصلبوت لحيلولة المسلمين بينهم وبين ذلك ، وهنا نظر ريموند ومن معه كل بوجه الآخر وقــال : « مــن اســتطاع العبــور فليعبر ، فالمعركة ليست لصالحنا ، ثم إن القتال لايمكن الاســتمرار به » ، واستمر المسلمون بالاندفاع نحو الصليبيين واحكام الحصار عليهم ، وذشابهم يفتك بهم فتكا شديدا .

وتخلى في تلك الساعة ستة من الصــليبيين عن مــواقعهم بعــدما أصابهم اليأس ، وذهبوا إلى جيش صلاح الدين وأخبــروه بــالحال الصعب الذي كان فيه الجيش الصليبي ، واعلموه بأن هــذا الجيش لن يستطيع الصمود إلا قليلا ، فالشمس أحرقته ، والعــطش انهــك قواه ، وأسقف عكا أحد الأوصياء على صــليب الصــلبوت أصــيب بضربة قاتلة ، فسلم الصليب إلى اسقف اللد .

واستفاد المسلمون من المعلومات الجــديدة ، ووضــحت صــورة الاوضاع داخل الجيش الصليبي لديهم ، فاندفعوا باتجاه الهضــبة إلى حيث التجأ المشاة ، وضغطوا عليهم لابادتهم قتلا وأسرا ، وهنا حاول بعض المشاة تسلق بعض الصخور على الأطراف ، بعدما قتل اكثرية رفاقهم أو أسروا ، وحتــى هؤلاء الذين « تخلوا عن صــليب الصلبوت ، وعبثا تسلقوا إلى الهضبة واجهوا الموت » .

وعندما رأى ريموند والذين معه هذا الحــال المتــردي ، ازدادوا يقينا بأن المعركة غدت ميؤوسا منها ، وانه من المحــال العــودة إلى الملك والانضمام إلى صفوفه ثانية ، لذلك قام ومعــه اتبــاعه بحملة يائسة على الجناح المسلم المقابل لهم ، لفتح طــريق للنجــاة ، وكان هذا التصرف منطقيا من بعض الجوانب ، جبانا من جوانب أخرى ، لهذا أجمعت المصــادر اللاتينية على نقــده حتــى صــاحب رواية ليبلوس ، وجه النقد لريموند ، عندما تحدث عن نجاته ، وقال بــأنه أقدم على التخلي عن الصليب المقدس .

المهم ، جمع ريموند أتباعه من حوله ، وكان بينهم ريموند صاحب

انطاكية مع أولاده الأربعة ، وتمكن معهم من تسلق الصخور ، وساعدتهم خيولهم على ذلك ، ثم شق طريقه بين المسلمين ، ووصل إلى الممر الذي سبق له أن حاول احتلاله أكثر من مرة من قبل، وعندما رأى تقي الدين قائد ميمنة صلاح الدين المقابلة لهم هؤلاء الرجال وقد تقدموا يائسين من الحياة تغافل عنهم ومكنهم من الفرار ، ثم عاد فأغلق الممر خلفهم ، ولا بد أن هذا حدث عند الظهر ، وصحيح أن ريموند صار الان منفصلا عن الجيش الصليبي تماما ، فالذي أفاد من ذلك الجيش الاسلامي : لقد فقد الصليبيون امهر قادتهم مع عدد كبير من الفرسان ، وغدت الساحة التي كانت تشغلها هذه القوة خاوية ، فاندفع المسلمون إليها وشغلوها ، وبذلك أصبح الطوق المضروب حول الفرنجة محكما وأكثر ضيقا ، واقترب القتال من النهاية .

وكان صلاح الدين مايزال يتابع أخبار القتال بنفسه ، وكان قلقا على نتيجة المعركة ، ذلك أن الفرسان الصليبيين استمروا يقاتلون بيأس ، وهنا تشجع صلاح الدين ، وقرر دفع أكبر القوات ، وبذل غاية الجهد لحسم الموقف ، ذلك أن المعلومات التي تلقاها من الستة الذين التحقوا بجيشه ، مع المعلومات التي جاءته عن فرار ريموند ورجاله ، قد أثارت الحماس في نفسه ، فأمر تقي الدين مع قواته المختارة بالتحرك ، واستغل تقي الدين الفراغ الذي تركه ريموند ، والساحة التي شغرت بعد فراره ، وجاء هجوم تقي الدين بعد الظهر ، وأجبر الفرنجة على التراجع إلى المنطقة الصخرية الصعبة ، لكن المعركة لم تنته ، واستمر القتال عنيفا للغاية .

ولم يكف الفرنجة ما عانوا منه حتى الان من الحر والعطش والنشاب ، فقد تعرضوا الان لمحنة جديدة ، جاءت نتيجة لعبقرية المسلمين المتفوقة ، فقد لاحظ واحد من المتطوعة من جيش صلاح الدين أن اتجاه الريح هو نحو الجيش الصليبي ، فرمى النار في الأعشاب التي كانت تغطي المنطقة ، ونتيجة لهذا نجد أن أولئك الرجال مع مطاياهم ، الذين كانوا بلا ماء لساعات طوال ، وكان قد

انهكهم القتال الشديد تحت الشمس المحرقة ، ضاقت الآن صدورهم ، وكادوا يختنقون من الدخان الذي ملأ الهواء ، لابل ربما فقد بعضهم حياته فعلاً نتيجة لذلك ، ويتساءل الانسان اليوم متى نفذ المسلمون عملهم البديع هذا ؟ فيجد أن ما من اثنين من المؤرخين اللاتين يتفقان في الرواية ، ولا يجد في المصادر الاسلامية ما يشفي الغليل ، وأنه لأمر يبعث على الاسف أن مواد المصادر الاسلامية ، خاصة ما كتبه العماد الاصفهاني ، ضاعت تفاصيلها في ثنايا صنعة البديع والجناس ، لهذا جاء جل أعتمادنا على المصادر اللاتينية ، التي روت تفاصيل مفيدة عما جرى داخل معسكر الفرنجة ، وحبذا لو فعل كتاب الاسلام مثل ذلك لاكتملت الصورة بين الطرفين .

يقول واحد من المؤرخين اللاتين بأن النار اشعلت في الصباح الباكر قبيل بداية المعركة ، ويتذكر أخر أن صلاح الدين كان قد أعد المواد المحرقة في الليل قبل المعركة ، ويستخلص من مواد الرواة المسلمين بأن ذلك كان بعد فرار ريموند ، وقد أوضح واحد منهم بأن ذلك كان الضربة الاخيرة التي وجهها المسلمون عندما شرع بقية الفرسان الصليبيون مع ملكهم بالتجمع فوق أحد القرنين ، حيث كان من الممكن سجنهم وسط دائرة من الدخان والنار الملتهبة في وجوهم ، ذلك أن شكل القرن كان مستديرا .

واشتد حال الصليبيين سوءا ، وزاد الضغط عليهم وعظم بشكل مؤلم ، فصاروا يعانون أكثر فاكثر من الحرارة والدخان ، وقد انقص شجاعتهم تخلي عدد كبير من الجيش وفراره مع مقتل أعداد كبيرة أخرى من مقاتليهم ، ولهذا تدنت معنوياتهم إلى الحضيض ، لكن رغم ذلك فإن يأسهم أعطاهم بعض الشجاعة التي كانت كافية لمتابعة الدفاع حتى أخر ساعات المعركة ، واضطر بالتدريج هؤلاء الذين لم يقتلوا أو يهربوا إلى التراجع إلى أحد القرنين ، ربما نفس القرن الذي التجأ إليه الرجالة من قبل ، وعندما تجمع هؤلاء المقاتلون المنهكون هناك من أجل الدفاع النهائي ، حلت بهم أقسى ضربة مذ دخلوا الحرب ، ضربة المتهم إيلاما شديدا أكثر من الحر

والعطش والدخان والنشاب ، وحتى من الهـزيمة نفسـها ، ذلك أن تقي الدين قد تمكن بهجومه الكاسح ، الذي جاء عقب فرار ريموند ، من الاستيلاء على صليب الصلبوت ، وكانت هذه الخشبة هي مصدر العواطف والمعنويات الوحيد الذي تبقى لدى الصليبيين ، قـد يكون من الصعب بالنسبة للانسان المعاصر تصور خسارة تلك القطعة من الخشب بالنسبة لأولئك الرجـال ، لكن الذين يفقهـون في أسـاليب الحرب النفسية والتوجيه المعنوي يقدرون عظيم التقـدير مـكانة أية اداة ، تؤثر على المقاتلين ، خـاصة اثناء القتـال ، وكانت خشـبة الصليب في العصور الوسطى ذات مكانة سامية جدا لدى المسيحيين عامة والكاثوليك منهم خاصة ، فهي الاداة التي مـن أجلهـا أثـار هرقل ـ امبراطور بيزنطة ـ صـليبية القـرن السـابع ضـد الامبراطورية الساسانية ، لقد حملت خشبة الصليب المزعوم هذه مع الفرنجة في جميع معاركهم الرئيسية ، لاعتقادهم بأنها تجلب ـ لابل تضمن ـ التاييد السماوي لأعمالهم ، وقـد حفـظ الفـرنجة هـذه الخشبة ، واعتنوا بها عناية فائقة ، ولم يتم استرداد هذه الخشـبة من قبل الفرنجة ثانية ، واختفت آثارها ، وكما هو متـوقع بـكاها المؤرخون اللاتين ، وحزنوا لفقـدها ، حتـى أننا لنجـد مصـنف ليبلوس ، انفعل انفعـالا شـديدا حين أتـى على ذكر خسـارتها ، واعتبر هذا الحدث خاتمة المعركة ، فلم يذكر إلا شذرات عما حـدث بعد خسارتها ، والمفيد هنا ذكره وملاحظته بعمق هو اثر هذا العمل على المسلمين ، فلقد عرف المسـلمون دين عدوهـم بشـكل عميق ، وأدركوا مدى مكانة هذه الخشبة في معتقداته ، وقدروا كم هو مهـم الاستيلاء عليها ، ولهذا نعاود تاكيدنا على أن معركة حـطين انتصر فيها التكتيك الاسلامي المطبق بعقل وشجاعة والتزام ، وهـكذا كان هذا النصر باهظ الثمن .

ولنستمع الى العماد الأصفهاني الكاتـب يحـدثنا عن الصـليب وعملية الاسـتيلاء عليه : « ولم يؤسر الملك ، حتـى أخـذ صـليب الصلبوت ، واهلك دونه أهل الطاغوت ، وهو الذي إذا نصـب وأقيم ورفع ، سجد له كل نصراني وركع ، وهم يزعمون أنه من الخشـبة

التي يزعمون أنه صلب عليها معبودهم ، فهو معبودهم ومسجودهم ، وقد غلفوه بالذهب الأحمر ، وكللوه بالدر والجوهر ، وأعدوه ليوم الروع المشهود ، ولموسم عيدهم الموعود ، فإذا أخرجته القسوس ، وحملته الرؤوس ، تبادروا إليه وانثالوا عليه ، ولايسع لأحدهم عنه التخلف ، ولايسوغ للمتخلف عن اتباعه في نفسه التصرف ، وأخذه أعظم عندهم من أسر الملك ، وهو أشد مصاب لهم ، في ذلك المعترك ، فإن الصليب السليب ماله عوض ، ولا لهم في سواه غرض ، والتأله له عليهم مفترض ، فهو إلههم ، وتعفر له جباههم ، وتسبح له أفواههم ، يتغاشون عند احضاره ، ويتعاشون لابصاره ، ويتلاشون لاظهاره ، ويتغاضون إذا شاهدوه ، ويتواجدون إذا وجدوه ، ويبذلون دونه المهج ، ويطلبون به الفرج ، بل صاغوا على مثاله صلبانا يعبدونها ، ويخشعون لها في بيوتهم ، ويشهدونها ، فلما أخذ هذا الصليب الأعظم عظم مصابهم ، ووهت أصلابهم ، وكان الجمع المكسور عظيما والموقف المنصور كريما ، فكأنهم لما عرفوا اخراج هذا الصليب لم يتخلف أحد من يومهم العصيب ، فهلكوا قتلا وأسرا ، وملكوا قهرا وقسرا ».

وعلى الرغم من أثر خسران خشبة الصليب القاصم على الجزء الأعظم من عساكر الفرنجة ، فإن عصبة منهم ثابرت على المنافحة ، وبقي في نفوسها بعض الشجاعة ، وفي أبدانها بعض القوة لمثابرة الصراع والدفاع ، وتجمع قلة من هؤلاء الفرسان الأشداء حول الملك ، وتمكنوا بطريقة ما من نصب خيمته ، وقاموا من هناك بهجوم يائس ، ربما أملوا من ورائه شق طريق للفرار ، كما فعل كونت طرابلس من قبل ، وبعد نجاح أولي حيث تمكنوا من دفع المسلمين إلى الخلف نحو صلاح الدين ، بادر هذا القائد الشجاع ، فأمر على الفوربهجوم معاكس رد الصليبيين على أعقابهم ، ومكن المسلمين من هدم خيمة الملك ، وبذلك انتهت المعركة ، ووصف واحد من المؤرخين المسلمين هذه الخاتمة بقوله :

ولما حمل الأفرنج « تلك الحملات ازدادوا عطشا ، وقد كانوا يرجون الخلاص في تلك الحملات مما هم فيه ، فلم يجدوا إلى

الخلاص طريقا ، فنزلوا عن دوابهم ، وجلسوا على الأرض ، فصعد المسلمون إليهم ، فألقوا خيمة الملك ، وأسروهم عن بكرة أبيهم ».

وجاءت نهاية المعركة قرابة العصر ، وافضل وصف وثائقي لساعتها الأخيرة ولأحداثها المثيرة ما رواه ابن الأثير عن الملك الأفضل بن صلاح الدين ، « قال :كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف ، وهو أول مصاف شاهدته ، فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة ، حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي : قال :فنظرت إليه ، وقد علته كآبة ، واربد لونه ، وأمسك بلحيته ، وتقدم وهو يصيح : كذب الشيطان ، قال : فعاد المسلمون على الفرنج ، فرجعوا فصعدوا إلى التل ، فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحي : هزمناهم ، فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانيةمثل الاولى ، والحقوا المسلمين بوالدي ، وفعل مثل ما فعل ، وعطف المسلمون عليهم ، فالحقوا بالتل ، فصحت أنا أيضا : هزمناهم ، فالتفت والدي إلي ، وقال : اسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة ، قال : فهو يقول لي ، وإذا الخيمة قد سقطت، فنزل السلطان وسجد شكرا لله تعالى ،فبكى من فرحه،وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات ، ازدادوا عطشا ، وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات مما هم فيه ، فلم يجدوا إلى الخلاص طريقا ، فنزلوا عن دوابهم ، وجلسوا على الأرض ، فصعد المسلمون إليهم ، فألقوا خيمة الملك ، وأسروهم عن بكرة أبيهم ، وفيهم الملك ، وأخوه ، والبرنس أرناط صاحب الكرك ، ولم يكن في الفرنج أشد منه عداوة للمسلمين ، وأسروا أيضا صاحب جبيل ، وابن هنفري ، ومقدم الداوية ، وكان من أعظم الفرنج شأنا ، وأسروا أيضا بليبانوس صاحب البترون ، وهيوج صاحب جبلة ، وصاحب مرقية ، وجماعة من الداوية وجماعة من الاسبتارية ، وكثر القتل والأسر فيهم ، فكان من يرى القتلى لايظن أنهم أسروا واحدا ، ومن يرى الأسرى لايظن أنهم قتلوا احدا ، وما أصيب الفرنج مذ خرجوا إلى الساحل..إلى الآن بمثل هذه الوقعة ».

لقد كان عدد الذين قتلوا أو أسروا يعدون بـالآلاف ، والذين لم يقتلوا كانوا منهكين ، وقد هدهم فقدان صليب الصلبوت ، إلى حد أنهم لم يحاولوا الفرار ، ذلك أنهم وضعوا بـالأسر ، وتركوا بـلا حراسة ، حتى حملوا إلى أسواق النخاسة في بلاد الشام ليبـاعوا هناك ، ويقول ابن شداد في المحاسن اليوسفية : « وكان الواحد العظيم منهم يخلد إلى الاسر خوفا على نفسه ، ولقد حكى لي من أثق به أنه لقي بحوران شخصا واحدا معه طنب خيمة فيه نيف وثلاثون أسيرا أخذهم وحده لخذلان وقع عليهم » .

ولما انتهت أعمال القتال ، وفرغ المسلمون من جمع الأسرى « نزل صلاح الدين في خيمته ، وأحضر ملك الفرنج عنده ، وبرنس أرناط صاحب الكرك ، وأجلس الملك إلى جانبه وقد أهلكه العطش ، فسقاه ماء مثلوجا ، فشرب وأعطى فضله برنس أرناط صاحب الكرك فشرب ، فقال صلاح الدين : إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فينال أماني ، ثم كلم البرنس وقرعه بذنوبه ، وعدد عليه عوراته ، وقام إليه بنفسه فضرب رقبته ،وقال :كنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به ، إحداهما لما أراد المسير إلى مكة ، والمدينة ، والثانية لما أخذ القفل غدرا ، فلما قتله وسحب وأخرج ، ارتعدت فرائص الملك ، فسكن جأشه وأمنه ».

لقد عومل الأسرى جميعا معاملة إنسانية ممتازة ، وأخذوا إلى دمشق حيث أطلق سراح بعضهم أو فودي بهم ، أو جرى بيعهم ، وذلك فيما عدا أرناط صاحب الكرك ، وفرسان الداوية والاسبتارية ، حيث اعتبرهم صلاح الدين مجرمي حرب ، فبعد اعدام أرناط جرى اعدام حوالي المئتين من فرسان الداوية والاسبتارية ،حتى روي بأن صلاح الدين اقدم على شراء بعض من هؤلاء الفرسان من أسريهم ، وأمر بإعدامهم أمام الجيش وجنده جميعا ، وهكذا كانت نهاية أكبر جيش جمع قط للصليبيين ، أو بالحري نهاية المؤسسة العسكرية للاحتلال الصليبي ، الذي استهدف جعل بلاد الشام وطنا لاتينيا فيما وراء البحار .

لقد كان عدد الفرسان الجرحى قليلا ، لكن لم ينج من الخيول فرس واحد ، ووصف العماد الكاتب ما رآه على ساحة المعركة ، وقد أثر به المنظر تأثيرا عظيما فقال :« ومن عجائب هذه الواقعة ، وغرائب هذه الدفعة أن فارسهم ما دام فرسه سالما لم يذل للصرعة ، فإنه من لبسه الزردي من قرنه إلى قدمه كان كأنه قطعة حديد ، ودراك الضرب إليه غير مفيد ، لكن فرسه إذا هلك فرس وملك ، ولم يغنم من خيلهم ودوابهم ، وكانت الوفا ما هو سالم ، وما ترجل فارس إلا والطعن والرمي لمركوبه كالم ، ».

في يوم الماء ، يوم حطين لابد أن خيول الفرنجة قد عانت مثل رجال الصليبيين من الحر والعطش والنار والدخان والنشاب ، ذلك أنه إذا كان نشاب المسلمين الذي وصف المؤرخون كثرته وفاعليته ، لم يجرح عددا كبيرا من الفرسان اللاتين ، فإنه قتل أعدادا هائلة من الخيول ، وبكلمة موجزة لم يتجل أثر تخلي المشاة عن حماية الفرسان ولم يظهر بوضوح كما في حطين ، ولقد رأينا بوضوح كيف تحول مجرى المعركة بسرعة إثر نجاح المسلمين في تنفيذ خططهم بفصل المشاة عن الفرسان ، وكيف حلت الفوضى وسط الجيش الصليبي .

لقد أفرد العماد الكاتب واحدا من فصول كتابه البرق الشامي للحديث عن النشاب ويمكننا من أوصافه مع أوصاف بقية المؤرخين المسلمين استخلاص صورة واضحة مشرقة لما حدث بالفعل : لقد كان فرسان الفرنجة على خيولهم وبدروعهم لايمكن اصابتهم ، ولكن يمكن اصابة مطاياهم ، لهذا اعتمدوا على حماية الرجالة الذين احاطوا بهم ، وكانوا أشبه بستارة بشرية ، حمت المطايا من النشاب وضربات المسلمين ، ولاجبار فرسان المسلمين على الابتعاد عنهم برماية قسيهم العقارة القوية ، ولذلك عندما حدث الفصل ، وتخلى الرجالة وعجزوا عن التقدم ، طوق المسلمين الفرسان من جميع الجهات ، وفتكوا بخيولهم بسهامهم وسيوفهم وحرابهم ورماحهم ونفوطهم ، ولابد ان عمليات الافناء حلت أولا بالخيالة

الخفاف التسليح مثل السارجنتية ، ذلك أنهم كانوا وخيولهم غير مجهزين بأسلحة ثقيلة تؤمن لهم الحماية الكافية ، وبعد هؤلاء جاء دور الفرسان الثقال الذين فقدوا الآن جميع أنواع الحماية .

لقد حاول المسلمون مرارا ــ في معارك متقدمة ــ فصل المشاة الفرنجة عن فرسانهم ونجحوا ، لكن نجاحهم في حطين كان مثاليا ، جاء نتيجة للخبرات السابقة ، وجرت ممارسته ضد جيش عملاق لاضد قوة صغيرة ، فلقد انتهز المسلمون يوم حطين فرصة تخلي المشاة عن الفرسان ، فأبادوا الفرسان الخفاف ، ثم التفتوا نحو الفرسان الثقال ، فبددوا قواهم بقتل خيولهم أو عقرها ، ومع أن دروع الفرسان لم تكن ثقيلة جدا ، ومعيقة بشكل كبير ، إلا أنها لابد قد غدت ثقيلة جدا ، وحملا منهكا بعد يومين من القتال الشديد ، حتى أن الفرسان الذين ظلوا يقاتلون إلى النهاية على خيولهم ، لابد أنهم كانوا في غاية الانهاك ، ولم يعد بمقدورهم الاستمرار .

وهكذا ربح صلاح الدين معركة حطين ، ربحها بعد جهود جبارة مضنية ، ربحها بعدما بدد قوى عدوه وصان قواه وأحسن استغلالها ، وهنا ما هو السبب الحقيقي الذي كمن وراء نصره المؤزر ؟ لاشك أنه لم يكن لا في التعداد ولا في القوة ، فالجيشان كان الرجحان في التعداد والاحتراف والتسليح فيهما لصالح الفرنجة ، الحقيقة ساطعة أمامنا هي تفوق صلاح الدين في الاستراتيجية والتكتيك ، حيث استطاع اقتلاع الصليبيين من صفورية ، وتمكن من جذبهم إليه ، وأبعدهم عن الماء ، وأجبرهم على القتال تحت شروط ضاغطة ، فيها عطش وانهاك ، بينما ظلت قواته حرة طليقة ، فالعطش والانهاك دفعا المشاة إلى الفرار ، وكان هذا ضاغطا أكثر من ضغط القتال والهجوم .

وقاد ذلك إلى الضربة اللازبة التي أنزلها بالفرسان ، وعليه فإن فصل السلاحين عن بعضهما البعض هو الحقيقة الحاسمة في المعركة ، لقد عوض صلاح الدين التفاوت بين قواته وقوات أعدائه عن طريق استغلاله لعوامل الطبيعة ، ونجح فيما استهدفه عن طريق

المناورة البارعة ، لهذا رأينا كيف كان الجيشان قبل التحرك ، وكيف صار حالهما يوم السبت حين التقيا على سهل حطين حيث تبدلت النسبة التعادلية من جوانب القدرة البدنية والقوة الجسدية .

وحين نتفحص بإمعان قضية استراتيجية صلاح الدين ، علينا الا ننسى ابدا عنصر المخاطرة التي امتزجت فيها ، فالحرب تبقى من اولها إلى أخرها مغامرة ، فوضع صلاح الدين كما سلف التبيان لم يكن مأمونا تماما ، خاصة والبحيرة إلى ظهره ، ولايوجد مكان للتراجع والالتجاء إليه ، وهو لم يكن بامكانه المكوث دون تحديد للمدة في تلك المنطقة الوعرة ، وبدون طعام ، وفي ظل تلك الأحوال كان عليه أن يأخذ بعين الاعتبار مشكلة الاحتفاظ بجيشه متماسكا ، فقد جمعت قواته للدخول بمعركة ، وكان تأخير المعركة ، والجند بعيدين عن ديارهم سيسبب بعض التذمر بين صفوف العساكر والمتطوعة ، وباختصار كان سيجد نفسه عاجلا أم اجلا مضطرا إلى الانسحاب او إلى القتال في ظل الظروف الصعبة نفسها التي فرضها على الصليبيين ، أو التوغل عميقا في الأراضي الصليبية إلى قرب مدنهم المحصنة ، كما نصحه بعض ضباطه وتمنى ريموند الثالث وأمل أن يحدث .

ويقول ابن الأثير حول هذا الموضوع في أخبار سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة : « لما اجتمع الفرنج ، وساروا إلى صفورية ، جمع صلاح الدين أمراءه ، واستشارهم ، فأشار اكثرهم عليه بترك اللقاء ، وأن يضعف الفرنج بشن الغارات ، واخراب الولايات مرة بعد مرة ، وقال له بعض أمرائه : الراي عندي أن نجوس بلادهم وننهب وتخرب ونحرق ونسبي ، فإن وقف أحد من عسكر الفرنج بين أيدينا لقيناه....فقال صلاح الدين : الراي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار ، فإن الأمور لاتجري بحكم الانسان ، ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا ، ولا ينبغي أن نفرق الجمع إلا بعد الجد بالجهاد.... »

ونعود لنؤكد لو أن صلاح الدين سمع ما قاله بعض ضباطه ،

واختار القتال في ظل تلك الشروط الصعبة كان سيهزم بواسطة ذلك الجيش الصليبي الكبير ، الذي كان افضل جيش اجتمع مثله للصليبيين ، ولابد أن الهزيمة كانت ذات وقع حاسم ، مثلما كان انتصاره ، فقبل حطين التقى المسلمون بالصليبيين في اكثر من معركة ، وهزموهم ، ولكن لم يحدث ابدا لا من قبل ولامن بعد أن بددوا لهم جيشا كاملا بمثل هذا الحجم ، وبددوه قتلا واسرا بشكل كامل ، ولهذا لم يكن في يوم حطين أعمال مطاردة او ملاحقة لفلول الجيش المهزوم .

ومن جهة أخرى كان اختيار الانسحاب معناه التخلي عن خطة الجهاد لاسترداد القدس والأراضي الساحلية ، ومن الضروري تقدير هذه الناحية وفهمها ، فقد روى ابن الأثير أن واحدا من ضباط صلاح قال أثناء مناقشة خطة الغزو قبل حطين :« إن الناس بالمشرق يلعنوننا ، ويقولون ترك قتال الكفار ، وأقبل يريد قتال المسلمين ، والراي أن نفعل فعلا نعتذر فيه ، ونكف الألسنة عنا »،ومؤكد أن صلاح الدين ملك امبراطورية واسعة ، لكن على الرغم من اتساع دولته كان هناك مثبطات كثيرة وعوامل معيقة لجمع جيش كبير ، وفي الحقيقة جمع صلاح الدين أكبر جيش كان بامكانه جمعه ، أو بالحري اكبر جيش جمعه طيلة حياته ، ومع هذا لم يكن ذلك الجيش كافيا لتأمين نصر أكيد في معركة تتم ضمن شروط متساوية للطرفين ، وسنرى انه بعد حطين مباشرة لم يستطع الاحتفاظ بجيشه متماسكا لمدة طويلة كان فيها بأمس الحاجة لهذا الجيش (أثناء حصار عكا) وعلى هذا لو أن صلاح الدين أخفق سنة ١١٨٧ م في استخدامه لجيشه ، كان من المشكوك فيه أنه سيتمكن ثانية ، من جمع جيش مساو له ، فكيف بنا بزيادة حجمه وقوته ، وكما حدث لم يعش صلاح الدين بعد حطين طويلا ليتمتع بنصره كاملا وليقطف جميع ثماره ، ولو انه أخفق في نيل النصر سنة ١١٨٧ م ،ما كان له أن يتمتع بالمكانة التي تمتع بها في العالم الاسلامي والتاريخ الانساني ، ولربما كانت الاحكام ضده قاسية

على ارضية موقفه من نور الدين ، وحروبه الداخلية لوراثة نور الدين ، وتأسيس امبراطوريته الواسعة •

وبحث عدد من الأوروبيين في العصر الحديث في حوادث معركة حطين ، بحث بعضهم لاهتمامه بتاريخ الحروب الصليبية عامة ، وبعضهم الأخر لاهتمامه بفن الحرب في العصور الوسطى وكان من هؤلاء أومان فبالنسبة لهذا الكاتب الانكليزي الكبير ، كان القتال في حطين ـ بالنسبة للصليبيين ـ غير ضروري ابدا ، من الممكن تجنبه ، وكان التورط به خطأ قاتلا ، زد على هذا أن هذا الخطأ المميت لم ينجم عن عدم قدرة في المعسكر اللاتيني ،أو عجز لدى قادته في التصدي إلى صلاح الدين البارع والشجاع ، فالفرسان الصليبيون كانوا أذكياء وبارعين وشجعان مثل صلاح الدين في فن الحرب ، وكان ريموند الثالث من الذكاء بمكان ، أمكنه من رؤية نوايا صلاح الدين وأهداف خططه ، وكان بقية البارونات عقلاء إلى درجة كافية تفهموا فيها حجج ريموند وقنعوا فيها ، بعدما أدركوا صحتها ، إن جيرالد هو الذي تقع عليه المسؤولية ، يشاركه فيها أرناط ومن ماثله بالتركيب والصفات ، لكن ما الذي دار في خلد هؤلاء ، وهل مشاعر العداوة لريموند كافية للتسويغ ، أم القضية مرتبطة بالرعونة والطيش وانعدام الصبر والرغبة بالثأر مع التعصب ، والطموح في الاستيلاء على ممتلكات اسلامية جديدة؟!....

والآن ماذا عن غي ، الذي اتخذ القرار تلو القرار ؟ المؤرخون يجمعون على أنه لم يكن يحب جيرالد فقط بل كان يخشاه ، وكان يعتمد عليه اعتمادا مطلقا ، فهو الذي بذل غاية الجهد في سبيله حتى جعله ملكا على القدس ، وهذا يوضح لنا سبب اتباعه لنصيحة جيرالد في كل مناسبة ، ففي الماضي نصح الملك باعلان الحرب على ريموند ، ففعل وحاصره في طبرية ، مما دفع ريموند إلى التحالف مع صلاح الدين ، فغي لم يملك ليلة صفورية الجرأة على مخالفة الرجال الذين صنعوه ملكاً ، لهذا استجاب فأعلن الحرب من صفورية ليلا ،

ولعل جيرالد حلم يومذاك بأنه سيفاجىء صلاح الدين مع تباشير الصباح فيوقع به ضربة قاصمة .

لم يكن صلاح الدين من هواة الحرب ، بل من أبطال التحرير ، وقد مت إلى حضارة فيها :« الراي قبل شجاعة الشجعان » ، فالراي هو الذي انتصر في حطين ، وكان على كل حال رايا مدعوما بالقوة والعقيدة ، وبراعة التنفيذ .

وفي البحث في وقائع حطين يجد الباحث نفسه في كل زاوية من زواياها امام عبقرية متناهية ، وأمام معاني جديدة ، ولعل ما جرى عرضه حتى الآن يفي بالغرض ، المهم الآن أن ننهي حديثنا في هذا المقام ببضع عبارات تأتي بمثابة خاتمة ، وفي الوقت نفسه مقدمة للحديث المقبل :

لقد بشرت معركة حطين بسقوط مملكة القدس ، هذه المملكة التي لم يتحطم جيشها فقط ، بل أفرغت قلاعها وحصونها ومدنها من خيرة حماتها ، لهذا حالما انتهى القتال في حطين حتى أخذت طبرية دونما قتال ، ثم زحف صلاح الدين ضد مدن الساحل ، فجرى تطويق عكا ، وتم الاستيلاء عليها ، وأخذت عسقلان ولم تسقط صور ، أما المدينة المقدسة فقد استسلمت في ٢ تشرين أول سنة ١١٨٧ م ، أي بعد ثلاثة أشهر من حطين ، وهكذا انتهت مملكة القدس ، وزالت من الوجود بعدما عاشت قرابة قرن من الزمن ، إنما استمرت بالاسم فقط ، والذي بقي الآن من مستعمرات الصليبيين في الشرق لم يتجاوز كونتية طرابلس ، وإمارة انطاكية (٥) .

حصاد حطين

فقد الصليبيون يوم حطين جل فرسانهم ومقاتليهم ، ودمرت مؤسستهم العسكرية ، بعد أن كانت أداة رعب في الشرق قرابة قرن مضى ، وفي حطين وقع في أسر صلاح الدين أعداد كبيرة من

الصليبيين كان يتصدرهم غي ملك القدس مع أخيه أمالرك مدير ادارة الحرب في مملكة القدس اللاتينية والمشرف العام عليها ، وعدد من النبلاء مع مقدمي الاسبتارية والداوية ، وأرناط صاحب الكرك ، ولقد صان صلاح الدين حياة غالبية الاسرى وعاملهم معاملة ممتازة ، لكنه لم يبق على ارناط وفرسان الاسبتارية والداوية ، ذلك انه كان قد عاهد نفسه أمام الله على عدم الابقاء عليهم لما قاموا به من جرائم .

وقام صلاح الدين باستغلال نصره المؤزر فاحتل معظم الأراضي والقلاع التي كانت بأيدي الصليبيين ، وحررها بسرعة خاطفة وببراعة سياسية تجلت فيها عبقريته وانسانيته وأخلاقه ، فقد كان يستهدف تحرير الأرض لاسفك الدماء وكسب الأموال ، علما أنه كان يمكنه ــ دون أن يلام ــ أن يسفك دماء عشرات الالوف من الصليبيين ، وهذا السلوك ، الذي لم يفهمه حق فهمه كثير من الكتاب تجلى في عمليات تحرير القدس الشريف ، ودون القيام بشرح تفاصيل عمليات ما بعد حطين يمكن ان نجمل ذلك كله بالقول بأنه مع نهاية سنة ١١٨٧ م كان ما بقي للصليبيين في الشرق بعض الممتلكات القليلة التي توزعت حول المدن الرئيسية التالية :أنطاكية ، طرابلس ، وصور .

فأنطاكية كانت بعيدة عن مسرح عمليات حطين ، وطرابلس كانت حصينة وتحتاج إلى حصار طويل ، وكان صلاح الدين قد عمد إلى تحرير المواقع التي عرف بأنها شبه فارغة من المقاتلين .

أما صور فقد كانت حصينة للغاية ، بفضل موقعها المتميز ، وبسبب وصول غالبية الناجين من حطين اليها ، يتقدمهم ريموند الثالث صاحب طرابلس ، وكان فيها عدد كبير من الجنوية بالاضافة الى قطعة بحرية جنوية كبيرة.

وتنبه صلاح الدين الى خطورة التطورات في صور ، فقام بحصارها ، رغم جميع المعوقات الداخلية ، ذلك أن امكاناته البحرية

كانت أضعف من أن تتصدى لامكانات أوربة ، وبخاصة أساطيل الدويلات الايطالية :(البندقية ، بيزا ، جنوى ، أمالفي) ثم إن قواته ، التي كانت مهيأة لخوض المعارك المكشوفة ، لاتملك أسلحة ثقيلة ، وكانت أنظمة ادارة الاقطاع العسكري تحول بين المقاتلين وبين البقاء تحت السلاح مدة طويلة على الأخص في مواسم الفلاحة وجني المحصولات .

ورغم هذا فقد حاصر صلاح الدين صور ، ونجح في تشديد الحصار عليها ، وقنط المدافعون عنها ، واتصلوا به وفاوضوه على تسليم المدينة ، وقبيل موعد التسليم بوقت قصير وصل الى صور يوم ١٤ تموز نبيل كبير اسمه كونراد أوف مونتفرات ، وهو من أفراد الأسرة الملكية للقدس ، وكان قد غادر أوربا سنة ١١٨٥ م يريد الأراضي المقدسة ، لكنه لم يأخذ طريقه إليها مباشرة ، بل مكث في القسطنطينية ودخل في خدمة الامبراطور البيزنطي ، وظل كذلك حتى وصلت نداءات ما قبل حطين إلى عاصمة البسفور فطلب الأذن بالمغادرة ، وركب البحر مع أتباعه ، واتجه نحو عكا ، وجاء وصوله إلى عكا بعد حطين وتحرير صلاح الدين لهذا الميناء الهام .

ويروى أنه عندما وصل مشارف ميناء عكا ، رأى من المظاهر ما جعله يرتاب ، لذلك لم يدخلها وتوجه نحو صور ، فنزلها وتسلم على الفور شؤون الدفاع عنها ، وبذلك حال دون سقوطها بأيدي صلاح الدين (٦) .

وبسرعة غدت مدينة صور مركزا لتجمع الصليبيين في الشرق ، ومن صور قام كونراد ، مع المقدمين الجديدين للاسبتارية والداوية وجميع الاساقفة اللاتين ، بمراسلة ملوك أوربا الغربية والبابوية ورجال الاقطاع وسواهم طالبين النجدة ، حتى ليروى أن كونراد « صور القدس في ورقة عظيمة وصور فيه القيامة التي يحجون اليها ويعظمون شأنها ، وفيها قبر المسيح الذي قبر فيه بعد صلبه ، بزعمهم ، وذلك القبر هو أصل حجهم ، وهو الذي يعتقدون

نزول النور عليه في كل سنة في عيد من أعيادهــم ، فصــور القبــر ، وصور عليه فارس مسلم راكب عليه ، وقد وطيء قبر المسيح ، وقــد بال الفرس على القبر ، وابدى هــذه الصــورة ــ وراء البحــر في الأسواق والمجامع ، والقسوس يحملونهــا ، ورؤوســهم مــكشفة ، وعليهم المسوح ، وينادون بالويل والثبور ، وللصور عمل في قلوبهم ، فإنها أصل دينهم ، فهــاج بــذلك خــلائق لايحصى عددهــــم إلا الله تعالى » . كما أرســل كونراد رئيس أســـاقفة صـــور واســـمه جوسشوس إلى اوربا وحمله العديد من رسائل الاستغاثة ، ووصــل هذا المبعوث أولا إلى جــزيرة صــقلية ، وهناك قــابل ملكهــا وليــم الثاني ، الذي استجاب له ، وأرسل حملة بحــرية نحــو شــواطيء الشام ، تمكنت من تقــديم المســاعدات إلى أنطــاكية وحــالت دون سقوط طرابلس بيد صلاح الدين .

ومن صقلية قصد رئيس أساقفة صور ايطاليا ومنهــا تــوجه إلى فرنسة فكان هناك في مطلع عام ١١٨٩ . ففي ٢٢ كانون الثاني مــن ذلك العام ، عقد هناك مؤتمر كبير ضم كلا مــن فيليب أوغســط ملك فرنسا ، وهنري الثــاني ملك انكلتــرة ،وعددا كبيرا مــن رجــالات الكنيسة والنبلاء والاقطاعيين الكبار ، وقد استطاع رئيس الأساقفة أن يؤثر على المجتمعين إلى درجة وعدوه فيها بحمل شارة الصــليب والتوجه إلى الشرق لاسترداد القدس ، وتم الاتفاق أن تكون شــارة الصليب حمراء للفرنسيين ، وبيضاء للانكليز ، وخضراء لسواهم .

وتحمس ملك انكلترا للذهاب الى الشرق ، فــراسل ملوك أوربــة الغربية ودعاهم الى مشاركته ، كما راسل ملك هنغاريا مخبرا اياه بخططه وطالبا إذنه ومساعدته على عبــور اراضي هنغــاريا ، كمــا راسل الامبراطور البيزنطي وقدم له المطالب نفسها ، وقــام الملكان بفرض ضرائب خاصة على شعبيهما عرفت بــاسم ــ عشر صــلاح الدين ــ من أجل تمويل الجيوش .

وعلى الرغم من اتفاق ملكي فرنسا وانكلتــرا على حمــل شــارة الصليب فانهما كانا متضاربي المصالح وفي عداء دائم ، كمــا عانى

كل منهما من مشاكل داخلية كبيرة احيانا ، فأدى هـذا الى تـأخير تنفيذ رحيلهما الى الشرق ، وضـاق عدد كبير مـن الأوربيين نرعا بهذا التأخير فأخذوا يرحلون نحو الشرق جماعات وأفرادا ، ولعـل أشهر من تـوجه على راس حملة معتبـرة الامبـراطور فـريدريك بربروسا ، امبراطور مـا عرف بـاسم الامبـراطورية الرومـانية المقدسة ، وقد وصل هذا الامبراطور الى آسية الصغرى ، لكنه غرق هناك فتفرق رجاله ولم يبق منهـم سـوى حـوالي ثـلاثمائة فارس ، واصلوا السير الى أنطاكية ومنها الى صـور ، وكثـر عدد الأوربيين الذي وصلوا الى المشرق ، وهذا مـاشجع الفـرنجة على الأخذ بمبدأ الهجوم ثانية ضد أراضي صلاح الدين وقواته ، ولقد متن عزمهم في هذا السبيل توفر الدعم البحري القوي .

وكان صلاح الدين قد قـام عام حـطين بحصـار مـدينة عسقلان ، وعندما صعب عليه فتحها فاوض المدافعين عنها واتفـق معهم على تسليمها له شريطة رحيلهم مع امـوالهم عنهـا وأن يطلق لهم سراح الملك ومقدم الداوية وعدد من كبـار النبـلاء ، ويبـدو ان صلاح الدين أخـذ العهـد على الملك غي قبـل أن يطلق سراحـه أن لايحاربه ثانية ، وكان هذا ماحدث لكن الأخير حافظ على عهدة مدة سنة كان قد قضاها في طرابلس وانطاكية .

وتوحي مصادر عصر حطين ان صلاح الدين ، كان يعلم بأن غي لن يحفظ عهده ، ولن يجد صعوبة في ايجـاد رجـل دين يحلله مـن مواثيق ايمانه ، انما أقدم على تسريحه ليربح عسـقلان وكيلا يملك الفرنجة عليهم ملكا جديدا صاحب قـدرات كبيرة ، فـالملك غي رغم شجاعته كان ملكا بلا ارادة ، وقائدا عسكريا ضعيفا .

ومهما يكن الحال فقد تجمع لدى غي نواة جيش جـديد ، فقـرر الزحف نحو عكا مسـتغلا اقـامة صـلاح الدين في بلدة مـرج عيون وانشغاله بحصار حصن شقيف أرنون ، ومر غي أولا بمدينة صـور، وقد منعه كونراد من دخولها ، انما تحـالف معـه وأمـده ببعض المساعدات ، ووصلت أخبار تحـرك غي الى صـلاح الدين فـظنها

مناورة صليبية لفك الحصار عن شقيف أرنون ولكنه عندما بلغه توجه الملك نحو عكا سعى لقطع الطريق عليه فأخفق .

وقام صلاح الدين باستدعاء قواته الاحتياطية من كافة المناطق وطلب اليها الاجتماع به في مرج الصفورية ، وعندما استكمل جمع قواته توجه نحو عكا ، فوجدها شبه محاصرة من الجهة الشمالية برا وبحرا مع جزء من الجهة الشرقية ، فعسكر صلاح الدين خلف خط الحصار الصليبي شرقي المدينة وملك في البداية ممرا بريا اليها ، وآخر من جهة البحر انما بصعوبة ، وكان صلاح الدين قبالة عكا في شهر ايلول ١١٨٩ م ، وفي الاسبوعين الأخيرين لهذا الشهر بدأت قواته بمناوشة المهاجمين الفرنجة ، لكنها لم تستطع الالتحام بهم في معركة فاصلة ، ويبدو ان قادة الفرنجة تعلموا من الدرس القاسي الذي لقنه إياهم صلاح الدين في حطين .

وحل موسم الشتاء بقسوته ، وساء حال الصليبيين ، ولكنهم صبروا ، فقد كانوا غرباء عن البلاد ، يعتمدون اعتمادا مطلقا على ماكانت تحمله اليهم سفن الدويلات الايطالية من مؤن وأسلحة ورجال ، ولقد اعتادت اساطيل هذه الدويلات على القدوم الى الشرق ابتداء من موسم الربيع ، وكانت اثناء وجودها أمام سواحل الشام تملك السيادة عليها ، وكان اختفاؤها في فصل الشتاء يعطي الفرصة لاسطول صلاح الدين الصغير بحرية الحركة ، وهذا الاسطول كان مصريا الى أبعد الحدود ، واعتاد على حمل المؤن والبضائع من مصر ، هذا ولئن أخفق صلاح الدين في اقتلاع الفرنجة من أحواز عكا ، فان سفنه قد استطاعت في شتاء عام ١١٩٠ م أن تنقل كميات جيدة من المؤن والذخائر والأسلحة الى ميناء المدينة ، ممّا ساعد على تقوية الدفاع عنها .

ومع مرور الأيام تعقد الموقف في منطقة عكا ، وبدأت وقائع ملحمة عنيفة ، قد تكون أشد وقائع تاريخ الحروب الصليبية ، فيها برزت معائب نظام الاقطاع العسكري الاسلامي ، وبانت معالم الخلل السياسي في امبراطورية صلاح الدين ، هذه الامبراطورية

التي بناها بذاته ، فلم تعد تملك الصبر حتى تجتث أواصر الوحدة بينها .

وصحيح ان امبراطورية صلاح الدين حافظت على وحدتها الظاهرية حتى وفاته ، لكن تمزقها الواقعي يكاد يكون المسؤول الأول عما جري أمام عكا ، ولقد سعى صلاح الدين الى تدارك الخلل فلم يحالفه النجاح ، ذلك أن عمليات سد الخلل كانت تقتضي منه القيام بعمليات عسكرية داخلية وهذا مالم يقدم عليه صلاح الدين، بسبب وضع المواجهة أمام عكا ، ثم ان صلاح الدين الكهل ليس هو صلاح الدين الشاب .

ومهما قيل عن انتكاسات ملحمة عكا وسلبيات وحوادث مايعرف باسم الحملة الصليبية الثالثة ، فانه ينبغي ان نتذكر دائما ان نصر حطين حكم على الوجود الصليبي في الشرق حكما مبرما بالزوال ، فما كان لقوة أن تغير هذا الحكم ، وكل ماكانت تستطيعه هو تعويق التنفيذ بعض الوقت ، وبعودة الى كل من انكلترا وفرنسة ، نجد أن هنري الثاني ملك انكلترا قد توفي وخلفه ابنه رتشارد الذي شهر بلقب قلب الأسد ، فقد أعلن رتشارد عن نيته بالتوجه الى الشرق ، لكن تورطه في العديد من المشاكل الداخلية والخارجية أعاق سفره ، وكما أن حالة نظيرة الفرنسي لم تختلف عنه ، فقد دعا هذا عددا كبيرا من نبلاء أوربة وكبار الاقطاعيين فيها الى الابحار نحو منطقة عكا ، وما أن حل ربيع عام ١١٩٠ م حتى بدأ سيل من الرجال والعتاد والمؤن من أوربة يصل الى عكا ، مما أدى الى تحريك الموقف وتغييره .

ويتساءل المرء عن عدد قوات الفرنجة التي تجمعت حول عكا حتى بداية خريف عام ١١٩٠ م ، فيحصل على اجابات متفاوتة ، فالمصادر العربية تحكي غير ماتحكيه المصادر الصليبية ، علما بأن أصعب المهام التي يواجهها الباحث في التاريخ العسكري للعصور الوسطى هي تقدير تعداد الجيوش .

وامام عكا نجد أنه في حين تتحدث المصادر الأوربية عن بضع مئات من الفرسان ، وأقل من الفين من الرجالة رافقوا الملك في القدوم أولا الى عكا ، نجد القاضي ابن شداد ، وهو شاهد عيان يقول :« وكان عدد راكبهم الفي فارس ، وعدد راجلهم ثلاثين الفا ، ومارايت من أنقصهم عن ذلك ، ورأيت من حزرهم بزيادة على ذلك ، ومددهم من البحر لاينقطع (٧) .

ونظرا لتزايد قوى الفرنجة ، فقد شددوا حصارهم لمدينة عكا ، وكان صلاح الدين قد أوكل شؤون الدفاع عنها من الداخل الى غلامه قراقوش ، ويبدو أن خبرته في التحصين والبناء كانت جيدة ، فقد سبق له القيام بالاشراف على مهام معمارية حربية في القاهرة وسواها ، وشدد الفرنجة ضغطهم على عكا ، وحاول صلاح الدين اقتلاعهم من معسكرهم ، ورأى ادخال قواته المشاة الى داخل عكا ، والانقضاض عليهم بفرسانه من الخارج واستدراجهم حتى يتمكن المشاة من الخروج من المدينة وتطويقهم وابادتهم .

لكن قادة قواته لم يوافقوه ، واحتج بعضهم بأن مايملكون من جند قليل ولايستطيع القيام بمثل هذه المخاطرة ، ثم قالوا :« هؤلاء عالم لايحصى ، قد حضروا من الأدنى والأقصى ، وأزوادهم عن قريب تفرغ ، وامدادهم في الصبر تبلغ ، وامدادهم تنقطع ، وانجادهم تمتنع ، وموادهم تقل ، وجوادهم تضل ، ولمراكبهم في الشتاء شتات ، ولحبائلهم وحبالهم انبتات (انقطاع) ، فاما أن يضطروا الى الانفصال ، وأما أن يؤذن فناء ارزاقهم بحلول الآجال ، ويهون علينا حربهم في تلك الحال (٨) »....

ويبدو ان الفرنجة قد لاحظوا تردد صلاح الدين ، لذلك التحموا به ، وأوقعوا به خسائر كبيرة وأجبروه على تغيير معسكره وأحكموا حصار عكا ، وقد وصف العماد الأصفهاني الحال حول عكا بقوله « وصرنا محاصرين المحاصرين ، قد أحطنا بالعدو ، وهو بالبلد محيط ، واستشطنا منه وهو

مستشيط ، واحدقنا بأولئك الكفرة احـاطة النار بـأهلها ، ومنعنا الطرق من ورائهم في وعرها وسهلها ... واستدارت الفـرنج بعـكا كالدائرة بالمركز ، وزادوا من جانبنا في التحرسر والتحرز » (٩) .

وفي أوربة اتخذ ملكا فرنسا وانكلترا قرارا بالابحار نحـو الشرق في تموز من عام ١١٩٠ وهكذا كان ريتشارد في الثاني من تمـوز في ميناء فزلي حيث التقى بملك فرنسا ، وفي الرابع من ذلك الشهر اقلع الملكان نحو ليون ، وكانت مرسيليا مركزا لتجمع الاساطيل ، وقـد ابحرت هذه الأساطيل من فرنسا نحـو صـقلية مسـايرة للشـاطى الايطالي ، وتـوقفت الحملة طـويلا في مسـينا ، وفي نهـاية آذار لسنة ١١٩١ م أخذ ملك فرنسا الطريق نحو فلسطين ، وبعده بأيام ابحر ريتشارد على راس اسـطول كبير ضـم ١٨٠ سـفينة ركاب وحمولة كبيرة ،و ٣٩ سفينة حربية ، فوصل أولا الى كريت ، ثـم الى رودس ، وبعدها الى قبرص ، حيث توقف فترة من الزمن .

وفي أثناء هذا كله كانت المعارك محتدمة حول عكا ، وكان صـلاح الدين قد وصلت اليه اخبار اساطيل ملكي فـرنسا وانكلتـرا ، مـع أخبار قوات جديدة قادمة عبر اسـية الصـغرى ، فـأقلقه ذلك غاية الاقلاق ، فقام باعداد بعثات زودها برسائل الى خليفة بغداد وأمراء الموصل والجزيرة ، كما أصدر تعليماته بتقوية اسـطول مصر ، وفي الوقت نفسه راسل مراكش ، ربما للمرة الثانية ، وكان على عرشها يعقوب المنصور الموحدي ، وكانت امبـراطورية الموحـدين انذاك في ذروة قوتها ، تملك من الجيوش الكثير ، مع اساطيل كبيرة وقـوية وسواحلها المتوسطية تمتد مـن ليبيا الى جبـل طـارق ، وتشـمل سواحل الأندلس ، وكان بإمكانها اعاقة الملاحة في مضيق مسينا ان لم نقل السيطرة عليه .

واستجاب أمـراء الشرق لنداءات صـلاح الدين ، ووعد خليفـة بغداد بارسال بعض النجدات ، وسـارع ببعـث جمـاعة مـن النفاطين ، كما اذن باقتراض مبلغ ٢٠ الف دينار من تجار بغـداد لانفاقها في الجهـاد ولم يسـتجب المنصـور الموحـدي ، واختلف

المؤرخون في تعليل أسباب ذلك ، ولعل أهم سبب كمن في التوسع الأيوبي في ليبيا الملاصقة لأراضي تونس الموحدية ، ومهما كان الحال ، فقد بات الآن على صلاح الدين تحمل أعباء التصدي للحملة الجديدة بطاقاته الذاتية .

ففي مطلع حزيران لعام ١١٩١ م غادرت أساطيل ملكي انكلترا وفرنسا قبرص واتجهت نحو صور ثم عكا ، وكان قد مضى على حصارها عامان ، أبدى المدافعون خلالهما ضروبا من البطولة النادرة ، ولقد شارك شعب بلاد الشام جميعا في الصراع وظهرت بطولات فردية نادرة ، فعندما شدد الحصار على المدينة ، استخدم المقاتلون العرب السباحة للوصول الى المدينة ، على طريقة « الضفادع البشرية » وغيرها من الطرائق .

وقلت المؤن داخل عكا ، وكاد العتاد ان ينفد ، وكان الصليبيون متفوقين في تقنية صناعة الأبراج المتحركة وغيرها من وسائل القتال الجماعي وأدوات الحصار ، ونلاحظ اثر هذا التفوق في إحدى رسائل القاضي الفاضل ـ رئيس ادارة صلاح الدين ـ بقوله :« ولهم قاتلهم الله تنوع في المكائد ، فانهم قاتلوه مرة بالأبرجة ، وأخرى بالمنجنيقات ، ورادفه بالدبابات ، وتابعه بالكباش ، وأونه باللولب ، ويوما بالنقب ، وليلا بالسرابات ، وطورا بطم الخنادق ، وآنا بنصب السلالم ، ودفعة بالزحوف في الليل والنهار ، وحالة في البحر بالمراكب ».

وبعد وصول رتشارد وفيليب بقرابة شهر تقريبا بدأ الصليبيون بتضييق الخناق على عكا ، وابتغوا أولا خلخلة دفاعاتها ، يقول القاضي ابن شداد واصفا ذلك :« ولم يزالوا يوالون على الأسوار بالمنجنيقات المتواصلة الضرب ، وينقلون أحجارها ، واقتصروا من القتال على هذا القدر ، حتى خلخلوا سور البلد ، وأضعفوا بنيانه ، وأنهك التعب والسهر أهل البلدة لقلة عددهم وكثرة الأعمال عليهم ، حتى أن جماعة منهم بقوا ليالي عدة لاينامون أصلا ...» ولما أحس العدو بذلك شرعوا في الزحف من كل جانب ، وانقسموا

اقساما وتناوبوا فرقا ، كلما تعب قسم استراح وقام غيره مقامه »

وبذل صلاح الدين كل مالديه من طاقات لتخفيف شدة الحصار على المدينة وايصال بعض المساعدات الى داخلها فأخفق ، وهكذا تلقى من المدافعين عن عكا رسالة فيها :« إنا قد بلغ منا العجز الى غاية ما بعدها الا التسليم ، ونحن في الغد ان لم تعملوا معنا شيئا نطلب الأمان ونسلم البلد ونشتري مجرد رقابنا » . ومجددا وضح أن صلاح الدين عاجز عن القيام بأي شئ وقام المدافعون عن عكا بالاتصال بالفرنجة وفاوضوهم واتفقوا معهم « على أنهم يسلمون اليهم البلد وجميع مافيه من الآلات والعدد والمراكب ، ومائتي الف دينار ، والف وخمسمائة أسير مجاهيل الأحوال ، ومائة فارس معينين من جانبهم ، يختارونهم ، وصليب الصلبوت ، على أن يخرجوا بأنفسهم سالمين ومامعهم من الأموال والأقمشة المختصة بهم ، وذراريهم ونسائهم».

وفوجى صلاح الدين بخبر الاتفاق ، وحاول القيام بعمل مالإيقاف التنفيذ « وعزم على أن يكتب في تلك الليلة مع العوام وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه ... فما أحس المسلمون الا وقد ارتفعت اعلام الكفر وصلبانه وشعاره وناره على أسوار البلد وذلك في ظهيرة نهار الجمعة سابع عشر جمادي الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة (١٢ ـ تموز ١١٩١م))(١٠) .

وكان أثر سقوط عكا على صلاح الدين مفجعا ، لكنه تحمله ، واصدر اوامره بالانسحاب الي الخلف مسافة قصيرة ، وبات عليه التحرك بسرعة وفي عدة اتجاهات :
فقد صار عليه التصدي للتحرك المقبل للفرنجة ، وانقاذ جنده الذين كانوا داخل المدينة ، ذلك ان الفرنجة أعتبروهم أسرى لديهم ، أو رهائن حتى يتم تنفيذ بنود الاتفاق .

وراسل الأسرى صلاح كما راسله رتشارد قلب الأسد الذي صار المسؤول الأول عن الصليبيين ، ذلك أن فيليب ملك فرنسا رحل عائدا نحو بلاده ، إثر سقوط عكا ، وقد أعلن صلاح الدين عن نيته

الالتزام ببنود الاتفاق والعمل على تنفيذه ، فقام بجمع الأموال المطلوبة واحضر صليب الصلبوت مع أعداد من أسرى الفرنجة ، وجاء وفد صليبي الى معسكر صلاح الدين ليشاهد المال والصليب والأسرى ، وهنا حصل خلاف حول الأسرى ، وجرت محاولات لتسوية هذا الخلاف فباءت كلها بالاخفاق .

وكان رتشارد قلب الأسد متهورا ومتعجرفا ، في طباعه رعونة ، وفي أخلاقه ميل شديد الى سفك الدماء واللامبالاة ، لذلك قام أثناء المفاوضات باصدار أوامره باحضار الأسرى « وكانوا زهاء ثلاثة الاف مسلم في الحبال » وأوقف هؤلاء الأسرى في ساحة مكشوفة وحشد فرسانه وقام هو وإياهم « وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد فقتلوهم صبرا ، طعنا وضربا بالسيف » .

وهكذا أضاف رتشارد الى السجل الدموي لتاريخ الصليبيين وأعمالهم في الشرق فقرة جديدة ، لم يقتصر أثرها هذه المرة على المؤرخين والاخباريين العرب واللاتين ، وانما حفظهما لنا صاحب ملحمة كتبت في القرن الثاني عشر بالنورماندية القديمة وحملت اسمه ، وقام صاحب الملحمة برواية أخبار الأحداث بشكل رهيب ، فرتشارد لم يكتف بسفك دماء العرب من أسرى وسواهم ، وانما اقدم على أكل لحوم القتلى منهم وذلك بعد طهيها وأصدر أوامره لجنده بفعل ذلك (١١) .

ومن جديد تحمل صلاح الدين مانزل به ، ولم يشغله حزنه عن رصد نوايا رتشارد ، وتحركاته ، وخاصة بعد أن علم أن رتشارد قد أعاد ترميم أسوار عكا وتحصيناتها.

وفي « مستهل شعبان سنة سبع وثمانين (٢٤ اب ١١٩١)اشتعلت نيران العدو في سحرة ذلك اليوم ، وعادتهم انهم اذا أرادوا الرحيل أشعلوا نيرانهم ، ٠٠٠٠ ولما أن علا النهار شرع العدو في السير على جانب البحر وتفرقوا قطعا ثلاثة » ، وعلم صلاح الدين بذلك فأمر قواته بالتحرك على محور

مقابل لمحور تحرك الفرنجة ، وبان له ان الوجهة هي عسقلان ومنها إلى القدس •

واثناء التحرك جرت مناوشات بين الطرفين ، وحاول صلاح الدين استدراج الصليبيين الى معركة مكشوفة فلم يفلح • وكان رتشارد في غاية الحذر • ومع ذلك فقد خشي أن يعد له صلاح الدين كمينا في غابة أرسوف •

لذلك قام قبل وصوله الى أرسوف بمراسلة الملك العادل ، أخي صلاح الدين ، وأبرز رجالات دولته ، وتم الاتفاق على عقد اجتماع بين رتشارد والملك العادل ، وفي ذلك الاجتماع طلب رتشارد عقد صلح مع صلاح الدين فقال له الملك العادل : « انتم تطلبون الصلح ، ولاتذكرون مطلوبكم فيه حتى أتوسط انا الحال مع السلطان » ، فأجابه رتشارد : « القاعدة أن تعود البلاد كلها إلينا ، وتنصرفون الى بلادكم ، فأخشن له الجواب وجرت منافرة » وارفض الاجتماع دون نتيجة .

وفي منطقة أرسوف حاول صلاح الدين انزال ضربة قاصمة بجيش رتشارد ، فلم يفلح ، بل حدث العكس حيث هزمت قواته وتفرق شملها ، وبات الآن صلاح الدين وجنده على قناعة انهم لن يستطيعوا هزيمة الفرنج ، لذلك سارع صلاح الدين من أرسوف الى يافا القريبة ، فأخلاها وهدم أسوارها ودفاعاتها ثم قصد عسقلان ، فكرر بها ما صنعه في يافا ، ومن هناك أخذ الطريق إلى الرملة فالقدس حيث شرع في تقوية دفاعات المدينة .

ولدى وصول رتشارد إلى عسقلان حاول أن يعيدها إلى سابق مجدها وحصانتها فلم يفلح ، وفي عسقلان وصلته اخبار مزعجة من انكلترا استدعت عودته إليها ، ولذلك كثف اتصالاته بصلاح الدين واجتمع بالملك العادل اكثر من مرة ، وتم طرح أكثر من حل لمشاكل الخلافات بين الطرفين ، كان من بينها زواج سياسي بين الملك العادل وأخت رتشارد ، لكن ذلك كله لم يثمر عن نتيجة مفيدة ، وظل صلاح

الدين طوال الوقت متصلبا في مواقفه تصلبا شديدا ، عازما على القتال مهما ساءت الأحوال •

لكن هذا التصلب اضطر صلاح الدين الى التخلي عنه عندما علم بنية رتشارد الزحف على القدس ، وبعدما عرف موقف أمراء جيشه ، فقد اراد اتخاذ موقف الدفاع داخل القدس وعقد لهذه الغاية مجلسا حربيا ضم كبار قادة جيشه وافتتح صلاح الدين ذلك المجلس بخطاب الحضور بقوله :

« الحمد لله ، والصلاة على رسول الله ، اعلموا أنكم جند الاسلام اليوم ومنعته ، وانتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذممكم ، فان هذا العدو أمن له من المسلمين من تلقاه إلا أنتم ، فإن لويتم أعنتكم ــ والعياذ بالله ــ طوى البلاد كطي السجل للكتاب ، وكان ذلك في ذمتكم فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا ، وأكلتم بيت المال ، والمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام » .

ورد القادة على صلاح الدين بكلام حماسي عام طيبوا به خاطره ، وتفرقوا عنه ، ولكن مالبثوا في مساء ذلك اليوم أن أبلغوه أنهم بعد اجتماعهم ببقية قادة الجيش ، رفضوا فكرة أخذ الموقف الدفاعي « وقالوا : لامصلحة في ذلك فإنا نخاف أن نحاصر ويجري علينا ما جرى على أهل عكا ، وعند ذلك تؤخذ بلاد الاسلام أجمع ، والراي أن نلقي مصافا ، فإن قدر الله تعالى أن يهزمهم ملكنا بقية بلادهم ، وإن تكن الأخرى سلم العسكر ، ومضى القدس ، وقد انحفظت بلاد الاسلام بعساكرها مدة بغير القدس» .

ويصف ابن شداد حال صلاح الدين عندما بلغه موقف القادة هذا بقوله :« فشق عليه هذه الرسالة ، واقمت تلك الليلة في خدمته حتى الصباح ، وهي من الليالي التي أحياها ... وكان عنده من القدس أمر عظيم لاتحمله الجبال .. ولما قارب الصبح أشفقت عليه وخاطبته في أن يستريح ساعة » •

ومن جديد تم استئناف المفاوضات بين الطرفين وأصيب خلال ذلك الوقت رتشارد بمرض شديد ، وقام صلاح الدين بارسال طبيب خاص لمعالجته وأتحفه ببعض الأدوية والأطعمة والفواكه والهدايا ، وكان لهذا كله أثره على المفاوضات التي اثمرت أخيرا باتفاق عرف باسم« صلح الرملة » تمت الموافقة عليه « صبيحة الثالث والعشرين من شعبان » سنة ثمان وثمانين وخمسمائة (٣ ايلول ١١٩٢ م) . وقضى هذا الاتفاق بـ :

١ ـ بقاء الشريط الساحلي الضيق الممتد من يافا حتى صور بيد الصليبيين •

٢ ـ اعادة عسقلان الى صلاح الدين شريطة هدم اسوارها .

٣ ـ امتلاك صلاح الدين للمنطقة الساحلية الجنوبية اعتبارا من عسقلان •

٤ ـ احتفاظ صلاح الدين بالقدس.

٥ ـ السماح للحجاج المسيحيين بالوصول الى القدس .

٦ ـ حرية تنقل الافراد والتجار بين البلدين .

٧ ـ السماح لكل من انطاكية وطرابلس الدخول بهذا الاتفاق إذا رغبتا .

٨ ـ مدة الاتفاق ثلاث سنوات .

وبعدما ابرم الصلح « غشي الناس من الطائفتين من الفرح والسرور مالا يعلمه إلا الله تعالى » لكن صلاح الدين كان على عكس الناس حزينا ذلك انه كما ذكر ابن شداد « ان الصلح لم يكن من ايثاره ، فإنه قال لي ـ رحمه الله ـ في بعض محاوراته في الصلح : أخاف أن أصالح وما أدري أي شيء يكون مني ، فيقوي هذا العدو ، وقد بقي لهم هذه البلاد ، فيخرجون لاستعادة بقية بلادهم ، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس قلته ـ يعني حصنه ـ وقال : لاأنزل ، ويهلك المسلمون » •

ومهما يكن الحال فقد توجه رتشارد إثر ابرام الصلح إلى عكا في التاسع من شهر تشرين الأول من العام نفسه ، وركب البحر عائدا

إلى أوربا وبذلك انتهت وقائع ما عرف باسم الحملة الصليبية الثالثة ، وانتهت معها أهم فترات حياته ، وأكبر انجازاته •

أما صلاح الدين ، فقد سرح قواته ، وتوجه من الرملة الى القدس ، وعقد النية على القيام بجولة تفقدية على جميع مناطق دولته في الشام أولا ثم مصر ، وأعلن عن رغبته بقصد الديار المقدسة لأداء فريضة الحج ، ومن القدس توجه إلى دمشق حيث استقر في قلعتها ، لكن ليس طويلا حيث مالبث أن حل به المرض فألزمه فراشه قرابة اسبوعين غشي أهل دمشق خلالها« من الكآبة والحزن ما لايمكن حكايته » وفي صباح الاربعاء سابع عشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة (٤ اذار ١١٩٣) توفي صلاح الدين فغشي القلعة والبلد والدنيا من الحزن والبكاء عليه مالا يعلمه الله تعالى».« وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس انهم يتمذون فداء من يعز عليهم بنفوسهم ، وما سمعت هذا الحديث الا على ضرب من التجوز والترخص الا ذلك اليوم ، فاني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدي بالنفس» (١٢) .

وجهز صلاح الدين ودفن خارج قلعة دمشق قريبا من المسجد الاموي في منطقة كان اسمها الكلاسة ، وحوت ارض دمشق الخالدة جسده الطاهر ، وبوفاته طويت صفحة المرحلة الثالثة من مراحل حرب الاسترداد العربية ، وهي اهم مراحل تاريخ الحروب الصليبية واجلها حوادث واهمها انجازات ، ولعل من ابلغ الدلالات على اهميتها وخلودها انها ارتبطت بخلود دمشق وبعظمة صلاح الدين الايوبي .